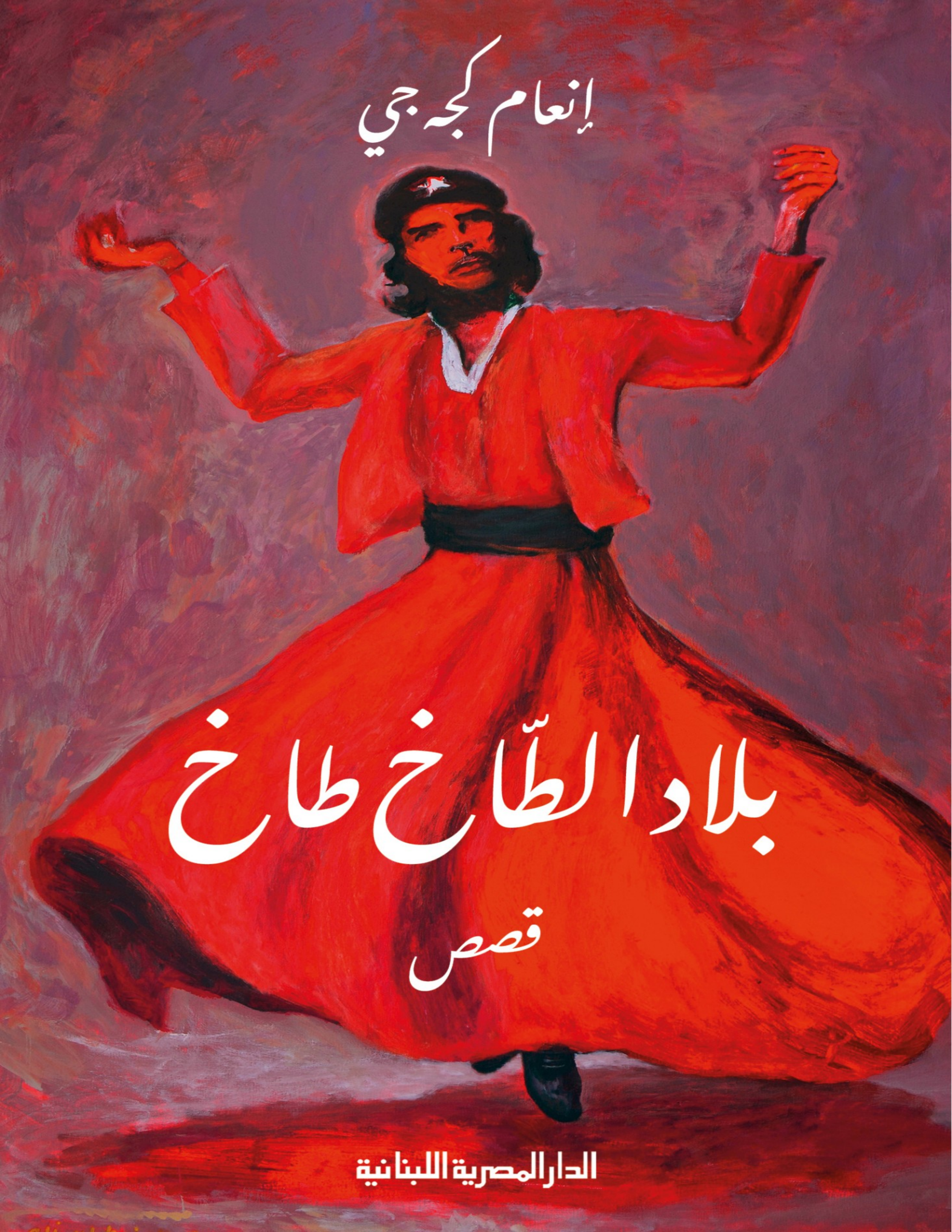

إنعام كجه جي

بلاد الطّاخ طاخ

قصص

الدار المصرية اللبنانية

بلاد الطّاخ طاخ

قصص

إنعام كجه جي

بلاد الطّاخ طاخ

قصص

الدار المصرية اللبنانية

كجه جي، إنعام.
بلاد الطاخ طاخ: قصص / إنعام كجه جي .- ط2.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2022.
112 ص؛ 20 سم.
تدمك: 7 - 346 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية القصيرة.
أ- العنوان. 813.01
رقم الإيداع: 27742/ 2021

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى - الطبعة الثانية :2022 م

لوحة الغلاف: علي آل تاجر
تصميم الغلاف: علاء الدين حسين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز، بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

إلى كلّ اللواتي يتعرّفن على أنفسهنّ

وكلّ الذين يتعرّفون على أنفسهم

في هذه القصص.

الفهرس

مرآة كرداسة 7
صورة المرحوم 15
عارية في الوزيرية 25
مرارة 35
بلاد الطاخ طاخ 43
الخوّافات 51
مسدس من ذهب 61
عمياء في ميلانو 67
نخلتي 75
المترجم رجب 83
الكاميرا الأولمبس 89
عهود وحدود 101

مرآة كرداسة

ما زالت مُعلّقة في مكانها على الحائط، أعلى من قامتي بشبر. لا أذكر لماذا اخترت لها ذلك الارتفاع. هل جئت بها من مصر لأرى وجهي على صفحتها أم لأتفرج على خشبها القاتم الذي يوحي بالقِدم وأتحدث مع وجوه أصدقائي المصريين المنبثقة منها؟

زرت القاهرة مع صديقتي كميلة. كنت مدعوة لمؤتمر وأصرّت أن ترافقني. قالت إنها ستموت إذا لم تقابل ليلى مراد. وكان ذلك قبل أن تموت ليلى مراد. مغنية من زمن والدتي نشترك في حبّها. لها صوت عذب كأنك تصغي إلى رنين عشرة أقداح من الكريستال تتقارع في صينية. نجحنا في الحصول على رقم هاتف المغنية وتكلّمت معها كميلة. لكنها اعتذرت عن اللقاء بأدب جمّ وكانت تعيش في عزلة.

أما وقد خاب رجاء صديقتي ولم تقابل ليلى مراد ولم تمتْ، فقد قررت أن هدف سفرة القاهرة هو الذهاب إلى كرداسة. وعندما تركب كميلة رأسها فليس أمامي سوى الامتثال وربط رجلي برجلها. كان أحد الباعة في خان الخليلي أخبرها أن كل تلك المشغولات الخشبية المطعمة بالصدف، وما هو أحسن منها وأبدع، موجودفي تلك القرية. هناك يمكنها الحصول عليها بأسعار أقل.

ـ السوق هنا للخواجات وأنت لست خواجاية.

في سيارة أُجرة مضعضعة توجهنا إلى هناك. كانت المنطقة قريبة من القاهرة، تصطف في شارعها الكبير دكاكين باعة التحف والنحاسيات والنسيج المحلي. ترجّلنا لنجد نفسينا في الفردوس الذي طالما حلمت به صديقتي التونسية. تعشق كميلة كل ما هو أصيل ونبيل من قماش وأثاث. تنصرف عن الجديد وتعيش من أجل ما هو قديم وجميل. ومن يزور شقتها في باريس ويطل من بابها، يتصور أنه أخطأ في العنوان ودخل محلاً للأنتيكا. هل قلت شقتها؟ كانت غرفة واحدة تختصر معنى السكن: النوم والطبخ والأكل والاستحمام ومشاهدة التلفزيون واستقبال الضيوف.

في أقل من ثلاثين متراً مربعاً وضعت كميلة سريراً واسعاً مغطى بمفرش هنديّ وكنبة عرجاء، لكنها من طراز لويس الرابع عشر، وطاولة أثرية تُطوى ليلاً وتُفرد نهاراً ومقعدين قديمين مخلعين مع تجبيرات ذهبية. تحتضن الموجودات رفوف محملة بالمئات من الكتب والمنحوتات الفضية والقوارير الملونة والمرايا الصغيرة والمجلات بعدة لغات. كانت، أحياناً، تقتني،

مجلدات مصورة تاريخية من دكاكين الكتب المستعملة، مكتوبة بلغات لا تجيدها، لمجرد أنها تتأسى عليها من التلف. أزورها وأتفرج على مهرجانها وأراها تتابع نظراتي المشفقة. تسألني وكأنها تسائل نفسها: «هل يحتاج الجمال إلى ترجمان؟».

في دكان فسيح بكرداسة، تعلقت عيناها بمرآة كبيرة ذات إطار من الخشب المعتّق والمطعّم بالصدف. لكن اللعبة الآسرة كانت تكمن في ذلك الرف البارز من الحاشية السفلى الذي يخفي تحته جاروراً صغيراً، كأنه صنع ليكون مخبأ لرسائل الغرام. عثرت كميلة على تحفتها التي لا تقبل فراقها. لن تعود إلى باريس وتترك المرآة بعيدة عنها في كرداسة. تفحّصت الخشب والنقوش بعين خبيرة مذهولة بفتنة الصناعة. طالعت صورتها في الزجاج الزئبقي المجروح بشوائب الزمن. رأ شعرها الأصهب الطويل المنسدل على وشاح بلون الخردل، لونها المفضل. تأكدت من أنها امرأة جميلة فهتفتْ: «أمااان».

لم تسأل عن السعر المطلوب في المرآة. جاءها البائع بكرسيّ وأجلسها أمامه. استغرق الاثنان في مفاوضات خرافية. هي بجاذبيتها وهو بلماحيّته.

ـ هل تؤمن، يا عم، بالحب من النظرة الأُولى؟

ارتبك الكهل ذو النظرات الملتبسة وضحك وهو يهزّ رأسه إيجاباً.

ـ أؤمن بالأولى والثانية وحتى المائة.

ـ إذاً فاعلم أنني وقعت في غرام مرآتك.

ـ ومرآتي وشوشتني أنها تبادلك الحب.

ـ ها أنا أطلب يدها منك.

ـ على بركة الله.

ـ ولابد من أن تقبل بتزويجنا بالمعروف، أي بأقل مهر ممكن.

راحت تزيّن له عرضها بأنهاستأخذ العروس إلى باريس، وستحجز لها مكاناً في الطائرة، وستعتني بها وتدللها وتسكنها فسيح شقتها، وستدهن خشبها، كل يوم، بالزيت العطريّ، وتمسح زجاجها بماء الورد، ثم تدعوها إلى مشاركتها حفلة الاستماع اليومية للست ليلى مراد.

دار رأس التاجر اللبيب وحاصرته النكتة:

ـ مش تاخديني باريس معاك أحسن من المراية؟

ضحكا بتواطؤ لذيذ وبسرعة تم الاتفاق وطلب الرجل لنا الكازوزة. وبدو أن تستشيرني، طلبت كميلة منه أن يحضر لها مرآة ثانية تشبه مرآتها. لقد صارت تسميها «مرايتي» من قبل أن تدفع قرشاً لصاحبها. بل فرضت عليّ أن أشتري واحدة مثلها، لأن من السخف أن أعود من كرداسة بيدين خاويتين. ومن يعرف التوانسة يدرك أن الفعل «يسخّف» يعني بلهجتهم «يؤسف». ولم أسخّف صديقتي ووقفت أتفرج على صبي الدكان وهو يغلف لنا المرآتين بطبقات كثيرة من الإسفنج والورق الأسمر. ربطهما بالحبال الليفية ربطة متينة وسار وراءنا في أزقة القرية بحثاً عن تاكسي العودة.

لم تنم كميلة، تلك الليلة. كنا قد حجزنا، بعد المؤتمر، غرفةفي فندق بوسط البلد. انتقلنا من «ماريو» الجزيرة إلى «نيتوكريس» في شارع محمد فريد. نزل يحتل الطابق السادس من عمارة عتيقة. ومقابل مبلغ زهيد يبيت النزيل على سرير ملوكيّ من أيام الباشوات، مع حمّام تزيد مساحته عن مساحة شقتينا في باريس. وهناك بوّاب لا يسمح باستخدام المصعد إلا لمن يروق له من النزلاء. هبّ لنجدتنا ونحن ندخل عليه بحملنا الثقيل وأخرج المفتاح من الجيب العميق للجلابية وفتح المصعد:

ـ تفضلوا يا هوانم.

ـ يعيّشك ربّي، ممكن تعيدها؟

ـ يا ستّ الهوانم يا جميل أنت.

تلوي كميلة عنقها وتلفّ رأسها فتضرب ذؤابات شعرها وجه البوّاب.

بعد يومين، شوهدت في مطار القاهرة مسافرتان تجرجران حقيبة بيد، وتسند كل منهما باليد الأخرى لفافة إلى صدرها. ورفض موظف الطيران أن يشحن اللفافتين الثقيلتين مع حقائب المسافرين. كان الحل هو أن ندخل الطائرة بما نحمل. جلست كميلة في مقعدها الضيق وأجلست مرآتها في حضنها. وكانت مرآتي تجلس في حضني، خارج حزام الأمان، ونحن نتحمّل نظرات الهزء أو الفضول طوال أربع ساعات.

وصلت مرآتي سليمة إلى باريس إلا من ثلم بسيط لإحدى مقرنصات إطارها. وأخذت مكانها في صدر غرفة المعيشة. كأن الحائط كان مهيئاً

لاستقبالها. أما كميلة، فقد كان عليها أن تقوم بعمليات مفاضلة واختيار، وطرد وإحلال، لكي تزيح عن الجدار الكثير مما يغطيه، مفسحة المجال لمرآتها. تربعت الملكة الكرداسية وحيدة على صفحته، لا يقلق عرشها أحد. وفي كل يوم من الأيام التي تلت عودتنا، كانت صديقتي تهاتفني:

ـ كيف حال العروس؟

ـ بخير، كيف حال شقيقتها؟

مرّ عشرون عاماً كنت فيها أزور كميلة وتزورني فنجلس قبالة المرآة ونضع إبريق الشاي الأخضر بيننا. نشر القدح تلو الآخر ونأكل الحلوى باللوز. نستمع إلى «يا سارقني برموش العين» ونحادث الخشب المطعم بالصدف. أميرتان في بلاط سلطانيّ. ولم يحدث أن حاولت يوماً أن أشبّ على رؤوس أصابعي لأبحث عن صورتي في المرآة المعلقة عالياً. اكتفيت بوضع أربعة عصافير من الفضة على رفها ودسست صوراً قديمة في جارورها الصغير. مع هذا، كانت ملامح أصدقاء كثيرين مرّوا من هنا، تتبدى لي معكوسة على صفحتها، تنادمني في شتاءات الوحشة.

كبرتُ وتراجعت قواي.شاخت مرآتي فازدادت قيمتها بنظري. اصفرّ طلاء الجدار لكنّه ظلّ يستمد زهوه منها. غابت سحنات ورحل أصدقاء وبردت أقداح الشاي وما زال الصوت يسرقني برموش العين. سقطت بروج في نيويورك وقام زلزال في العراق وطلع ربيع على مصر وأنا أنفعل وأفرح وأشتم وأهرب من الشاشة إلى مرآتي لعلها، بحكمتها، تشرح لي ما يجري من فوضى.

وفي عام كورونا الأول ماتت كميلة. ولن أمضي في التفلسف فأزعم أنني صحوت، ذات صباح، على صوت زجاج يتهشم في صالة بيتي. كما أنني لم أتخيل أن صديقتي التونسية كلّمتني لتقول، بجزع، إن مرآتها قد سقطت وانكسرت. تلك تورية ممجوجة يعوزها الإبداع. ذلك أن مرايانا شواهد من خشب وزجاج تعيش معنا. تأخذ منّا وتعطينا. وهي قد تتشكّل على صورتنا. تشهد صولاتنا وخيباتنا وتؤازرنا وتواسينا مثل رفيقة وفيّة. ما زالت مرآة كرداسة تتابع أحداثاً جساماً تنعكس على فضّتها فتزداد إشراقاً. أداريها وأمسحها بماء الورد. أؤجل يوماً تغضب فيه وتكفهرّ وتقلب لي وجهها.

صورة المرحوم

لم أتوقع أن أرى دموعاً في عينيّ هوارية، السيدة الجزائرية التي تتولى نظافة المبنى الذي أسكن فيه. امرأة رباعية الدفع، بقوة عشرين حصاناً، تسهر على برج يرتفع لثلاثين طابقاً. أصادفها عند المدخل، أو في المصعد، وتعجبني نظافتها. ظهرها مستقيم وشعرها مشدود إلى الوراء وثنيات الكي ماثلة على ثوبها. رداء العمال الأزرق. تلملم نفاياتنا ورائحتها مثل الورد. كأن بينها وبين جيفة القاذورات حجاباً حاجزاً.

كنت نازلة من السادس إلى الثاني تحت الأرض، أحمل كيس القمامة لأضعه في غرفة الحاويات. وكانت هي تتوارى خلف الباب. تنشج بحرقة وتمسح أنفها في ردنيها. رأتني فارتمت عليّ، تبكي على كتفي. باغتتني حركتها لأن العلاقة بيننا كانت سلامات وحسن جوار فحسب.

ـ خير يا حورية؟

ـ ساعديني ربي يساعدك. نحن المسلمين قلوبنا حنينة.

صعدنا إلى شقتي. جلست ترتجف والدنيا صيف. انتبهت إلى أن الاسم المكتوب على جيب ثوبها هو هوارية، وليس حورية مثلما كنت أناديها. وهي لم تحاول، ولا مرّة، أن تصححه لي. لعلها تصورت أن العراقيين يلفظون الهاء حاء، مثل الفرنسيين الذين ينطقونها ألفاً أو واواً. بونجور أوارية. ميرسي أوارية. لم تشرب العصير الذي اقترحته عليها، ولا شاركتني فنجان القهوة. هدأت ورجتني أن آخذها إلى طبيب يعالج الإمساك. قالت إنها في ورطة ولا تريد لطبيبة العائلة أن تعرف ما بها.

قمت إلى رف في المطبخ وجئت لها بأقراص تفيد حالتها. حبة سحرية متناهية الصغر، تُبتلع في المساء فتنفرج الأمور مع حلول الصباح. أعطيتها أيضاً تحاميل زيتية تسهّل المهمة. لكنها لم تأخذ الأدوية وعاودها نحيب مرير. كانت تتألم بدون آهات. تنطوي على نفسها وتلف خاصرتها بذراعيها.

فجأة، اعتدلت ومخطت ومسحت أنفها عدة مرات، سحبت نفساً عميقاً وألقت ما في قلبها:

ـ سأنفجر. لم أعمل «بيبي» منذ أسبوع.

استخدمت هوارية اللفظة التي يستخدمها الأطفال. كيف يمكن لبشر ألا يتبوّل؟ كلنا يعرف الإمساك. تنقبض الأمعاء ويتعذر الخروج. لكنني لم أسمع

بمن جافاه البول لعدة أيام. لملمت حقيبتي ومفتاح السيارة وأخذت هوارية إلى الدكتور رشيد، صديقنا السوري طبيب المسالك. كان نهار أحد والعيادات مقفلة. ذهبنا إليه في بيته. هاتفته من السيارة ورحب بي بحكم الصداقة العائلية التي تجمعنا. جاءت الشغالة بصينية القهوة وأقداح الماء البارد وهوارية تقفل شفتيها. كل قطرة تدخل فمها تزيد من عذابها.

شرحت للدكتور الأمر بكلمتين. توقعت أن يستغرب لكن عيناً لم تطرف له. قام ودعاها إلى غرفة جانبية ثم عاد وقال إن حالتها مقلقة. بطنها منتفخ وعضلاتها منكمشة. لابد من نقلها إلى الطوارئ قبل أن تتسمم. سيسحب الجراح السائل المحتبس في مثانتها. اتصل بالمستشفى وتفاهم مع زميل هناك. كتب لها ورقة الإحالة ورجاني أن أذهب معها. ستحتاج إلى رفقة. دموعها لا تتوقف. تتوجع بصمت كأنها تتستر على فضيحة. كان رأيه أنها تمر بحالة نفسية خاصة.

عدنا إلى عمارتنا وذهبت هوارية لتأتي بحاجياتها وأوراقها. دخلت عليّ تحمل بيد حقيبة صغيرة وباليد الأخرى لوحاً ملفوفاً بمنشفة كبيرة، أسندته إلى طرف المنضدة. كانت عيناها حمراوين وصوتها متحشرجاً من البكاء.

أزاحت المنشفة فرأيت صورة مؤطرة لرجل أعرفه. أومأتْ إليه وهي تهمس:

ـ هذا هو السبب.

ـ بومدين ...؟

ـ سي الهواري، ربي يرحمه.

بورتريه بالأسود والأبيض، من تلك الصور التي تخصّ الزعماء ونراها في المكاتب الرسمية، معلقة فوق رؤوس المدراء. كل صورة تشهد على عهد وتتغير برحيل رئيس وحلول غيره. يحتفظون أحياناً بالإطار ويستبدلون صورة بصورة. لكن زمن الرئيس الماثل أمامي في الإطار مضى منذ وقت طويل. لابد أن سحنات متعددة حلت محله. لماذا تحتفظ ببرواز الهوار؟

بقيت واقفة ترفض الجلوس، تحكي بسرعة وتوتر. كنت أعرفها قوية ذات قلب مقدام وها أنا أراها مضطربة مجللة بالوجل. تتكلم بلغة دارجة مخلوطة بالفرنسية وأحاول أن أفهم ما تقول. أن أنتبه لكل التفاصيل. عرفت أنني أمام قصة سأكتبها ذات يوم. فقد بزغت ذكرى موازية في رأسي، تخصّني ولا تخصّ هوارية.

طلبت منها شركة الخدمات أن تذهب لتنظيف شقة في شارع «بونتيو». حيّ بمبان عريقة كانت سكناً للنخبة الباريسية ثم زحفت عليه الشركات والمكاتب. وصلت هوارية إلى العنوان المحدد واكتشفت أن المبنى ليس غريباً عليها. لطالما رافقت أباها إليه وهي صبية. مديرية الضمان الاجتماعي للعمال الجزائريين في فرنسا. مات سي الميهوبي ولم تكتمل معاملة تقاعده. تغيرت الأوضاع وتعرقل العمل في المديرية. بقيت الشقة مغلقة لسنوات. تراكم فيها الغبار واستحالت ستائرها البيض الشفافة رمادية.

بين الجزائر وفرنسا ضفيرة طويلة من خصلات متشابكة. شعر معقّد لا ينفع معه مشط ولا زيت. مثل ذلك الحوار الهامس في أغنية جين بيركن. تقول له: «أحبك» ويرد عليها: «ولا أنا». عداوة لا فكاك من عناقها. واقع أسود يقطعه بحر أبيض.

ظل العقار مملوكاً للدولة الجزائرية. وهناك شركة سياحية تنوي الحلول فيه. أخذت هوارية المفاتيح من أحد معارفها وورقة مائة يورو خضراء. أعطاها مهلة يومين لتنظيف الشقة. ستنجز العمل في عطلة نهاية الأسبوع، خارج الوقت المخصص للبرج السكني. طلبت من زوجها أن يخرج حاويات القمامة إلى الرصيف ويعيدها إلى مكانها بعد مرور سيارة البلدية. جاءها رزق مفاجئ وكافر من يرفضه. هكذا كانت أمها تصبّرها على القبول بما تقوم به. «خدمة الفرنسيس رزقك فلا تكفري». تتكلم بعبارات سريعة مثل صليات رشاش وكأن لديها رسالة تريد تبليغها قبل أن يُغمى عليها.

ـ يا ويلي يا مدام ... اختنقت حالما دخلت المكتب. سعلت وعطست وحسبتني سأموت. فتحت الشبابيك لأتنفس هواء ربي. الأثاث قديم وخيوط العنكبوت فوق رأسي. حتى الأوراق والستامبا والتلفون الأخضر ما زالت على مكتب المدير. لم يتغير شيء سوى الصورة. رأيت الشاذلي يبتسم من الكادر. ناس ملاح تروح وناس ملاح تأتي.

فتحت هوارية عدة التنظيف وعبوة الجافيل. ربطت شعرها وانهمكت في شغلها. تمر الساعات وعرقها يهطل. دخلت الحمام لتعمل «بيبي». مسحت المقعد وأنزلت سروالها. جلست لتفرغ ماءها لكنها صرخت كأن عقرباً لسعتها.

ـ فجأة رأيته يخزرني فتيبس جسمي. نظرة صارمة ومخيفة تطالعني من صورته المركونة وراء الباب. سي الهواري في الزاوية مع الكراكيب؟ يا ويلي يا ويلي.

مات بومدين يوم ولادتها. كان عمها الكبير مجاهداً من رفاقه وطلب أن تسمّي البنت هوارية. ارتبط اسمها باسم رجل لا تعرفه. كبرت وفهمت أنه كان شيئاً كبيراً، رئيساً مرهوب الجانب، لا يمكن لامرأة مثلها أن تقضي حاجتها في حضرته. احتبس الماء في جسدها ولم يخرج. انقبضت عضلاتها وانسدّت مساماتها ونشف عرقها. هالها أن ترى الرجل المهم مهاناً في حمام مهجور. سترت نفسها بسرعة ولم تكمل ما أرادت. خرجت تتعثر بالارتباك. تتلعثم في وصف شعورها وأحفظ كل كلمة. كانت مجروحة في وطنيتها وعجزت عن المضي في تنظيف الشقة. المهم أن تنقذ الصورة. فاعلة خير وليست سارقة. ستأخذها معها وتخفيها في غرفة نومها. وراء الدولاب. لن تحكي لأحد عنها. ولا لزوجها.

نفذت هوارية ما انتوت عليه. أوقفت سيارة أجرة ولم ترجع بالمترو. تذكرت أنها لم تركب تاكسياً منذ أن ذهبت لتلد آخر أطفالها. نزلت وتلفتت حولها وصعدت جرياً إلى شقتها تحمل وديعتها السريّة. حل بومدين ضيفاً عليها. تختلي به وتلمّع زجاج صورته وتحاول أن تتآلف مع مهابة نظرته. لكن أحوالها تغيّرت. وها هي تفشل في القيام بما يقوم به كل الرجال والنساء والدواب. تضغط مثانتها عليها ولا تفلح في فكّ عقدتها. تشتهي خرير الماء في المرحاض ويتمنّع عليها. تجلس على المقعد البلاستيكي وتعصر ما بين فخذيها. تدلّك ظهرها وتدوس بكفيها على خاصرتيها. تترك المقعد الإفرنجي وتقرفص على بلاط الحمّام. تدعو وتنتحب بدون صوت. تنتظر الفرج. بطنها منفوخ يوجعها ولا قطرة تريحها.

صوت هوارية يأخذني إلى تتمة الحكاية. يقودني إلى طرف يخصني منها لأكتشف أن قصتي ليست ملكي. تتناسل تجارب البشر وتتشابه. جيرة تقارب بين المتباعدين وتغلق القوسين. فبعد سنوات من رؤيتي لهوارية كل يوم وسلامي عليها في الرواح وفي المجيء، أشعر للمرة الأولى بنوع من القرابة التي تجمعنا. أتآخى معها في رد الفعل العفوي. نلتقي في نقطة بالغة الحراجة.

أفلست المجلة العربية التي كنت أعمل فيها. اختفى صاحبها من كل باريس. نسأل عنه السكرتيرة ولا جواب. لم يكن قد دفع لنا مرتبات الشهرين الأخيرين. اقترح مدير التحرير أن نأخذ من المكتب ما نشاء. ماذا نفعل بمناضد حديدية صدئة وأكداس من أعداد قديمة؟ هبط علينا، ذات صباح، موظفون مكلفون بالحجز على الموجودات لتسديد الديون. لم يكن مالك المجلة قد سدّد ما عليه لصندوق التقاعد والضمان. صادروا جهاز الاستنساخ وهواتف قذرة تدار بالأصبع. سحبوا كراسينا من تحتنا وأخرجوا المحررين من الغرف. نظروا لنا بأعين الشفقة وغادروا تاركين المكان مزبلة للأوراق.

دارت عيناي على الغرف الثلاث الحزينة وقد خوَت من ضجيجها. أخذوا كل ما تصوّروه ذا قيمة وتركوا تلك الصورة معلقة على الجدار، في مواجهة المدخل. لوحة مرسومة بقلم الرصاص لرجل ذي عوينات سميكة. كان اسمه حسام أبو راس. هل يهمّ مأمور الحجز الفرنسي أن صاحب الصورة شهيد اغتيل في حرب لبنان؟ نسف السوريون مكاتب جريدته في عز النهار وقضى في الانفجار. تناقلت الوكالات الخبر وحزن عليه من حزن. ووراء كل مقتلة مهزلة. تاجر شقيقه بدم القتيل وباعه لنظام عربي معادٍ لدمشق. قبض دنانير كثيرة. شيكات بملايين الدولارات. حنفية متدفقة تستحق أن يتخلى عن تجارته الكاسدة في بيروت. سيعيد إصدار الصحيفة في مكان آمن، بعيداً عن البلد المنكوب. انتقل إلى باريس وفتح مجلة تجاهر بالولاء للممول الرئيسي وتبتز الأنظمة التي تعاديه. كان يتبجح بأنهم يدفعون له من قبل أن يشتمهم. يرسل لهم افتتاحيات مكتوبة فيرسلون له تحويلات إلى حساباته في جنات الضرائب. مقالات كتبت للتهديد، لا تراها المطبعة ولا تنشر.

يهتز كرشه من الضحك وهو يروي للمحررين:

ـ يكفيهم أن أسكت عنهم ولا أنشر أعراضهم.

في صدر المدخل، في باريس، ارتفعت صورة مرسومة ومؤطرة للشقيق الشهيد. عاش صاحب المجلة على سمعة أخيه. القرعة تتباهى بشعر أختها. جمع ثروة ولم يدفع ما عليه للدولة. هرب وتركنا ننتظر غودو. ثم كان ما كان. وها هو المكتب خلا من كل محتوياته، ما عدا تلك الصورة الموشحة بشريط أسود. لم يهن عليّ أن تذهب إلى سيارة جمع القمامة. رفعتها من على الجدار وخرجت من المكتب، للمرة الأخيرة، وأخذتها معي إلى شقتي. فوجئ زوجي بها. تأمل الرسم واختبر نوع الإطار.

ـ ماذا سنفعل بالمرحوم؟

ـ مات شهيداً للكلمة.

ـ مكانه الجنة لا بيتي.

احتفظت بالصورة في المخزن الصغير، جنب المطبخ، مع حقائب السفر وألعاب الأطفال القديمة. أخذ حسام أبو راس مكانه على الرف بين هاتف أسود متقاعد يدار بالإبهام، وبين مجلدات لصحف احتجتها في دراستي. كنت أنوي الاستفادة من البرواز لكنني لم أجرؤ على وضع صورة ولدي فيه. نسيته هناك حتى جاءت هوارية تمسك بطنها وتروي لي قصتها الغريبة. لا

غريب في هذه الدنيا. تركتها واقفة في الصالون وذهبت إلى المخزن وعدت بالصورة المتربة. وضعتها أمام صورتها. تقابل المرحومان بعد سنوات من موتيهما. الأول في الجزائر والثاني في بيروت.

ـ انظري، عندي واحد أيضاً.

فتحت هوارية عينيها على سعتهما وهي ترى الصورة الموشحة بشريط أسود. اهتز بدنها ورفعت يديها إلى رأسها. شبكتُ عشرها على رأسها، كما يقول المغني. كأنها تلطم في مأتم متأخر. ثم حدثت المعجزة. راح بولها يسيل على ساقيها وهي واقفة. وكانت تبكي بشدة وكنت أغصّ بالضحك.

عارية في الوزيريّة

يوم طبعت تذكرة سفري الإلكترونية إلى بغداد، قال لي آدم إنها فكرة مجنونة لن أحصد من ورائها سوى وجع الرأس. وآدم ولدي وتربية يدي. مهندس فرنسي عقلاني يحسبها بالملّيمتر. لم يأخذ من أبيه غير الشارب الأسود الرفيع. الشارب ذاته الذي أوقعني، قبل أربعين عاما، في غرام نحّات عراقي غريب الأطوار.

شاهدته واقفاً كالمأخوذ يتأمل لوحة في مركز «بومبيدو». نظر لي ونظرت له. تفاهمنا ببضع إشارات والكثير من هزّات الرأس. خاطبته بفرنسيتي الراقية التي صقلتها دراسة الأدب في السوربون وردّ عليّ بتلعثمه. يبدأ بمفردات بسيطة ثم يترك لعينيه إكمال المعنى. بؤبؤان سوداوان ونظرات حادة تمتلك مقدرة خارقة على توضيب الكلام. كيف كان لي ألا أنجذب إليه وقد كان التجسيد الحي المناقض لكل التقاليد البرجوازية والإتيكيت البليد الذي تربيت عليه؟

أكمل دراسته الفنية وتزوجنا وأخذني إلى بغداد. مدينة غريبة ناهضة أحببت شمسها ونخيلها ولم أتآلف مع غبارها. عشنا سنوات سعيدة وهاجة. أنجبنا آدم وحقق زوجي حلمه بالتدريس في أكاديمية الفنون. لكن حروبا غير ضرورية أجبرتنا على العودة إلى فرنسا. أقمنا في بيت صغير ورثته عن أهلي في الجنوب. كبر آدم وكبرنا. وزوجي الذي كان عمودا من حديد، أصيب بداء غريب وصار خردة. هل يكون مرض الحنين إلى الوطن؟

قبل ساعة من انطفائه، دعتنا الممرضات لتوديعه. شبح هزيل راقد بلا حراك. وقفت مع آدم عند سريره، نحاول أن نفهم من خلال الأنابيب الطالعة من أنفه ومن بين شفتيه، كلمات يصرّ على أن يوصينا بها. قال إن علينا إحراق جثته ونثر رماده في ممرات المقبرة الإنجليزية في الوزيرية. غير بعيد عن أكاديمية الفنون. وفي حين اتسعت عينا آدم من الفزع، شعرت بشيء من الراحة لأن الحرق أقل تكلفة من الدفن. لكن أيّا منا لم يفهم لماذا أراد حبيبنا المحتضر تعذيبنا بهذه الوصية السخيفة. أي وزيرية وأي هراء؟

زوجي، الذي كان يحرق أعصابه مع سجائره، مات في مستشفى بومبيدو في باريس. بومبيدو جمعنا وبومبيدو فرّقنا. وبينما كانت عيناه العميقتان تدخلان الفرن وتتحولان إلى هباء، كانت الصحف العراقية تتناقل خبر رحيل النحات الكبير سالم الشذري. نشر رفاقه مقالات تدعو لتنظيم «جنازة وطنية للفنان الذي رحل في المنفى بعد أن قدم صورة مشرفة للنحت العراقي المعاصر في المحافل الدولية». ووجّه تلاميذه نداءات لنقل جثمانه

إلى بغداد. هكذا كتبوا. لكن أحداً لم يتصل بي من السفارة ولا من وزارة الثقافة. لا شكّ أنهم مشغولون بما هو أهم. وهكذا، ذات ضحى حزين، سكبت رماد زوجي في دلّة نحاسية كبيرة من شغل سوق الصفافير، جاء بها آدم من زيارته الوحيدة للعراق. ولم يكن ولدي قد سافر إلى هناك للتعرف على أرض أجداده بل مع شركة فرنسية تبحث عن عقود في الإنشاءات والمباني. استخدموا اسم والده طُعما للصفقات.

حملت الدلّة معي في الطائرة. أحكمت لصق غطائها وتغليفها بورق مشمّع ولففتها بكيس مخدة. مر الكيس القماشي على أجهزة التفتيش في مطار شارل ديغول بدون مشكلات. لكن التعقيدات بدأت في مطار عمّان.

ـ ما هذا؟

ـ دلّة.

ـ ماذا فيها؟

ـ رماد زوجي. لقد أوصى بنثره في بلده.

امتعضت موظفة الترانزيت وأسرعت تنادي مديرها. ومن حسن الحظ أن المدير كان يتوخى الستر. تركني أمرّ بمتاعي المشبوه وأستقلّ سيارة أجرة إلى بغداد.

استقبلني الفنانون هناك بالترحاب. لكنني عندما أخرجت الدّلة من الكيس ووضعتها على المكتب الأنيق لوزير الثقافة انتفض وصرخ:

ـ أعوذ بالله! نحن مسلمون ولسنا هندوساً، وحرق الميت حرام. خذي هذا الشيء من هنا، يا مدام، أرجوك.

رفعت الدلة وأعدتها إلى كيسها مثل مادة مشبوهة. جمرة خبيثة أو مخدرات. وحوقل الوزير وتعوذل عدة مرات وتناول منديلاً ومسح المكتب. ظل متقززًا وهو ينصحني بالعودة إلى بلدي. رجاني ألا أخبر أحداً بالقضية. إن البلد غير آمن، كما قال لي، والفوضى في كل مكان، وقد يخطفني أحدهم لأنني أجنبية أو حتى يغتالني. لم أدر ما أفعل. بقيت في الفندق الكبير ثلاثة أيام حتى أصابني الضجر. وفي اليوم الرابع نزلت وأخذت تاكسياً إلى الوزيرية.

ـ مقبرة الانجليز من فضلك.

لم يتمكن السائق من التوقف هناك بسبب مرور رتل أميركي قطع الطريق، وفي النهاية أنزلني أمام أكاديمية الفنون الجميلة، عند زاوية الشارع. هنا كان سالم يعلّم تلاميذه النحت، على مدى أعوام طوال. قلت لنفسي سأدخل وأطوف في الأرجاء وأبحث عن أنفاس زوجي في المبنى العتيق. لكن حارساً اعترضني وطلب تفتيشي.

ـ وين رايحة؟

ـ عند العميد.

ـ عندك موعد مسبق؟

ـ نعم.

ـ ما هذا؟

ـ دلّة فيها طين يصلح لزراعة النعناع. أنا مريضة بالربو وأحتاج هذه النبتة للعلاج.

تفرّس الحارس فيّ بريبة لكنه أشّر بيده لكي أدخل. ثم لحقت بي طالبة كانت ورائي وسمعت حديثي معه. سألتني من أين أنا فقلت لها بعربيتي التي تشبه لغة المستشرقين إنني من فرنسا. جمدت وفتحت عينيها على سعتهما وهمست:

ـ أنت زوجة المرحوم الأستاذ سالم الشذري؟

منذ تلك اللحظة تغيرت زيارتي البغدادية ونبتت لها أجنحة ومناقير لا تخطر على البال. كان حيّ الوزيرية منعشاً، لا يشبه المنطقة التي يقع فيها فندقي. هناك مررت قرب جثث متفحمة، رأيت مشردين سكارى يتقيؤون على حذائي، حشاشين يمدون أيديهم لشد حقيبتي من فوق كتفي، عمياناً يسيرون في سلسلة مثل قطار، حشداً من مبتوري الآذان يتظاهرون للمطالبة بالتعويض، وأطفالاً قذري الأقدام يهرشون رؤوسهم ويجرون ورائي. «وان دولار بليز ... حجيّة وان دولار».

نجحت في بلوغ المقبرة الإنجليزية لكنني لم أُنفذ من وصية زوجي سوى بمقدار حفنة صغيرة ذرتها عند ضريح «الجنرال مود» لأن منظره كان طاغياً. مكان جميل هادئ رغم أصداء إطلاقات تأتي من بعيد. موسيقى طبيعية في بلد غير طبيعي. قطط سمينة وكلاب سائبة وشواهد رخامية تحمل آثار خراء

وأشجار وارفة رغم كل شيء. ومع عودتي إلى الفندق بدأت دراسة الخطة التي كانت قد بزغت، فجأة، في رأس نسيمة، طالبة النحت الصغيرة بعد حديثها معي. إنها دليلتي هنا.

جمعت حاجياتي وسلّمت مفتاح الغرفة وخرجت لأجد سيارة تويوتا عتيقة تنتظرني أمام الفندق. كان فيها شابان لا أعرفهما. ورأيت نسيمة تؤشر لي من نافذة المقعد الخلفي. ومثل كوماندو حسن التدريب تبادلنا تحيات مقتضبة وانطلقنا الى الوزيرية. إن زوجي لم يولد هنا بل في مدينة فقيرة يمرّ بها نهر صغير. حكى لي أنه كان طفلًا حين عجنت أصابعه الطين لأول مرة على ضفافه. كان يصنع شخوصًا ذوي رؤوس مفلطحة وأعين مجوفة لكن والدته ضربته لأن تلك أصنام الكفار. نال صفعات كثيرة ولم يتوقف. وفي سن التاسعة عشرة دخل أكاديمية الفنون ليدرس النحت. وفي السنة الأخيرة فصلوه لأنه نحت الرئيس بعينين غير متناسقتين. اتّهمه زميل حسود بأنه تعمد أن يجعله أعور. أمضى ثلاثة أشهر في الأقبية ثم هرب عن طريق الشمال. وما حدث بعد ذلك أعرفه لأنني كنت شاهدة عليه.

في شارع خلفي من شوارع الوزيرية أقمت في غرفة من بيت مستأجر. بيوت فسيحة كانت فخمة قبل أن يعبث بها غبار السنين، تحيط بها الحدائق والأسيجة الواطئة والمستنقعات الصغيرة التي خلفتها أمطار الشتاء. تذكرت الربيع الذي يهجم على المدينة مع الزهيرات البيض الأولى لأشجار الليمون والنارنج. يسمونه القدّاح. أزكى من عطور ديور وشانيل. وفي الأمسيات، يغفو فوح القداح ليستيقظ شذى شبّو الليل.

زهور صغيرة زرقاء أو بنفسجية، تنمو على ساق مستطيلة ولا تتفتح إلا بعد المغيب لتنشر شذاها الذي يدوّخ الألبا.

في تلك الأيام، رأيت العشاق، شبانًا وفتيات، يخرجون من المساكن الداخلية لطلبة الجامعة. يتنزهون في الشوارع الجانبية، اليد في اليد، ويكون أجسرهم قد كسر مصابيح الشارع بمصيدة للعصافير. تنتشر العتمة وتسمح بقبلات مسروقة خلف أشجار الكاليبتو. أما في الوقت الراهن فالعتمة جاهزة. انقطعت الكهرباء بسبب قصف محطات الطاقة وما عاد العشاق في حاجة لاصطياد المصابيح.

شممت عطر شبّو الليل ومررت بالمكان الذي كنت أرتاده مع سالم، عند نزلة الجسر الحديدي. بحثت عن مطعم «غاردينيا» ذي السقف الأخضر الواطئ. يصرّ زوجي أنهم هناك يقدمون «ألذّ أرزّ بالباقلاء في العالم أجمع». لكني لم أجد المطعم بل عمارة حديثة سيئة الواجهة، مزوقة مثل عروس من الغجر. ومن تحت الجسر، وصلني غناء سكارى سريّين يشترون العرق،

تحت العباءة، بعد أن منعت الحكومة بارات الخمور. أهذه هي وزيريتك يا سالم؟

وطوال الأسبوع، كانت نسيمة تأتي كل يوم، لكي تكمل مراحل الخطة. تنقل إلى البيت كميات من الطين النديّ وتكومها في الحديقة الخلفية. ثم جاء زميلاها الشابان، ذات مساء، ومعهما كيس كبير مثل أكياس الدقيق. غير أن المسحوق الأبيض لم يكن طحيناً بل جبسًا. وقد راقبتهما وهما يخلطانه بالماء وبشيء من الطين. وبين الحين والآخر كان الباب يفتح ويدخل طلاب وطالبات إضافيون، يسيرون على مهل كي لا يثيروا انتباه الجيران. ولما انتهوا من العمل، طلبوا مني هو أن أسكب فوق الخليط ما تبقى من رماد سالم الشذري. ولم تعجن يدا نسيمة وحدها الجبس المخلوط بالطين وبالهباء. غمس تلاميذ سالم أكفهم في الطشت، كل حسب دوره، وترنمت الطالبات بأغنية شعبية وتركن جدائلهن الطويلة تتدلى فوق الوعاء. التصقت الخصلات بعرق جباههن وبأذرعهن المتشمرة. كان طقساً عجيباً بعث القشعريرة في نفسي. وبينما نامت الوزيرية على هدهدات الإطلاقات البعيدة، امتدت أكف بنات وأولاد لم يتجاوزوا العشرين لتلبخ، بالجبس الأسمر، قامة نسيمة التي وقفت عارية في حمّام الدار وكأنها آلهة سومرية تتوهج في ضوء الشموع.

ذات فجر رائق من أول الصيف، استيقظ أهالي الوزيرية على نصب امرأة عارية يطل من سطح أكاديمية الفنون الجميلة. جسد بالحجم الطبيعي يتحدى فتاوى تغطية النساء وتحريم النحت ولعن الغناء والموسيقى. صار للفضيحة ساقان ومضت تركض في شوارع الحي وتدق على الأبواب، من منزل لمنزل. دعت الناس للخروج والتطلع إلى سطح الأكاديمية. نهض الأطفال وتبعوا مصدر الضجة. دعست نعال البلاستيك الرخيصة شتلات شبّو الليل في الحدائق. هرول أفراد شرطة المرور وهم يضعون أيديهم على كاسكيتاتهم لئلا تطير. توافد طلاب الجامعة إلى المبنى العتيق وهللوا وهم يشاهدون المنحوتة. ثار الملتحون واستغفروا ربهم وتوعدوا الفنانين بنيران جهنم. تهدّلت الأحجبة عن رؤوس الطالبات ورحن يصفّقن حبورًا. خلعت الأمهات عباءاتهن السود ولوّحن بها في الهواء. كانت الوزيرية الحزينة المختنقة تريد أن تتنفس وتستعيد مهرجاناتها وكتبها وألوانها وعشاق شوارعها الخلفية.

ثم وصلت فرقة مدججة من الشرطة وأراد أفرادها الصعود إلى السطح لكن طلبة قسم النحت كانوا قد سدوا باب الدرج بالمصاطب ومناضد الصفوف. لم يبق أمام المهاجمين الواقفين أسفل المبنى، سوى محاولة اصطياد

العارية بالحبال كما تُصطاد الخيول الجامحة. أرادوا جرها من رقبتها لكي تنكفئ ساقطة على وجهها.

أيقظت الهرولة الجماعية أحد السكارى المتأخرين فرفع رأسه وفرك عينيه.

ـ هل هو تمثال آخر لصدام؟

ـ لا ... هذه روح سالم الشذري تعود إلى الوزيرية.

مرارة

انشق باب الغرفة، في العتمة، ورأيت كائناً خرافياً يمدّ رأسه إلى الداخل. ثم انتبهت أن له رأسان، رأس يركب رأساً. حاولت تفسير ما أرى فلم يسعفني الوهن. كنت سادرة ما بين بقايا البنج وبين تأثير الدواء المُسكّن. تقدّم الكائن الغريب خطوات نحو سريري وسمعته يهمس:

ـ أأنت بخير، سيدتي؟

ـ لا بأس ...

ـ آسف لإقلاقك. أنا توما، الممرض الليليّ، وهذا زميلي جوردان.

رفعت رأسي قليلاً وتأكدت أنهما شخصان يسيران مندمجين، كتلة واحدة. الأول قصير والذي خلفه أطول منه. ثم انفصلت الكتلة وانحنى شطرها الأول يميناً لكي يطمئن على الكيس المربوط إلى خاصرتي، حيث تتجمع الدماء الباقية من العملية. بينما دار الشطر الثاني يساراً ووجه مسدساً أبيض إلى جبهتي ليقيس حرارتي. هزّ رأسه راضياً وربط حزاماً على ساعدي، يراقب الضغط.

ـ كل شيء تمام. هل تشعرين بألم؟

ـ قليلاً.

ـ ما درجته بين واحد وعشرة.

ـ اثنان. ألم مُحتمل.

ـ حسناً. سنعود بعد ثلاث ساعات ونجدّد المصل المغذّي.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ منتصف الليل. أرجو لك أحلاماً سعيدة.

عاد الرأسان واندمجا، ركب أحدهما الآخر. خرج الكائن المزدوج وأطبق الباب فسادت العتمة. لا شكّ أنهما من جزر المارتينيك الفرنسية. يمكنني، من تجاربي، أن أرسم الخارطة الإثنية للعاملين في هذا المستشفى. ممرضات النهار بيضاوات. خادمات تنظيف الغرف وتقديم الطعام إفريقيّات.

دافعو الأسرّة المتحركة مغاربة. ممرضات الليل خلاسيات من المستعمرات البعيدة. وإذا كانت المريضة عربية أو مسلمة، ولم تتوافر ممرضة، فالأفضل أن يعتني بها ممرضان، تفادياً لحرج الخلوة.

حاولت استدعاء ملاك النوم فلم يستجب. مددت أصابعي بحذر، تحت الغطاء، أتحسس موضع العملية. دارت يدي على ثلاث نقاط مغطاة بضمادات. واحدة عند الصرّة والثانية في أعلى البطن والثالثة أسفل الثدي الأيمن. كل الجراحات باتت هكذا. مجهر وكاميرا وثقوب صغيرة. لا شقوق ولا خيوط أو مشابك معدنية. غداً أنهض وتزول الآثار من بطني، لا تترك سوى ندب بسيطة يداعبها سلمان في ساعات الوداد. سيقبّلها ويغنّي لي: «قل لي يا حلو شجابك علينا... أمّك جابتك واحنا ابتلينا» فيطيب الجرح كأنه ما كان.

اعتدت المستشفيات وصالات العمليات. يسمونها الـ «بلوك». أساق إليها مدفوعة على أسرّة متحركة. تتعدد الأسباب والمآل واحد. ألياف في الرحم. حصى في الكلية. رمل في الحالب. التصاق في الأمعاء. تضخم في الغدة الدرقية. أدخل وأخرج وكأنني أزور بيت أهلي أو ضريح أولياء، تأدية لنذر. حفظت دورة تحليلات الدم وصور الرنين والأشعّات المقطعية. أسئلة أطباء التخدير. رائحة الباتادين. برودة صالات العمليات ووجع الظهر في غرفة الإفاقة.

ـ تجمدت أطرافي، غطوني أرجوكم.

يكون اللسان ثقيلاً بعد البنج. لا أدري إن كانوا فهموا ما قلت. تطورت التجهيزات مع الوقت. لم تعد هناك أغطية سميكة وبطانيات. صاروا يدسون تحت الشرشف الورقي المعقّم أنبوبة بلاستيكية تبثّ هواء ساخناً. دفء بالغ اللذة بعد قشعريرة البرد. نسمة لطيفة منقحة من جهنم. ينتفخ الورق وأتحوّل إلى بالونة. رائدة فضاء منفلتة من الجاذبية.

تأخروا كثيراً ما بين تحضيري للجراحة وبين نقلي إلى صالة العمليات. السبب هو أنني في جراحات الطوارئ. يقولون لي إن هناك حالات أشدّ حراجة من حالتي. يتمدد في الممرات مجاريح ومحاريق يصارعون للبقاء. أدمغة جُلطت وقلوب سكتت، سيسحبون أصحابها من براثن الموت. قال لي طبيب التخدير، ذات يوم، إنه يبقى عند رأس المريض طيلة ساعات العملية، عينه على الشاشة التي تؤشر النبض والضغط وبقية التفاصيل. يحدث أن تتدهور الحالة ويدور صراع بينه وبين عزرائيل. الطبيب يشدّ من ناحية وعزرائيل يشدّ من الجهة المقابلة. أعجبتني الصورة ووعدته أن أكتبها في واحدة من قصصي.

كانوا يصارعون الموت من حولي ولم آكن سوى مريضة تحتاج لإزالة مرارتها. عملية يمارسها الجرّاح بالسهولة التي أثبت بها زرّاً سقط من قميص سلمان. وهو حين رآني أتخصّر وأتوجّع وأفرغ كل ما في جوفي، سحبني إليه وهو واثق أن بين ذراعيه سلامي. حضنه عافيتي. ولما بدأت أتلوّى من الألم لفّني بمعطفه ونزل بي عدة طوابق. فحصني الطبيب وسألني عن نوع عملي. كنت عاجزة عن الكلام فتولى سلمان الرد.

ـ كاتبة.

ـ ماذا تكتب؟

ـ قصصاً وروايات.

ـ صحيح؟ أنا أيضاً عندي رواية وأبحث عن ناشر.

كنت قد انطويت مثل جنين واحتضنت نفسي. اتصل الطبيب بصديق له وطلب منه أن يجري لي «إيكوغرافي» للبطن. أشعة بالموجات فوق الصوتية حسب ترجمة غوغل. كما أعطانا عنوان مختبر لتحليل الدم على أن تُرسل له النتيجة على بريده الإلكتروني. نفّذت المطلوب وكان طبيب الأشعة حاسماً.

ـ حصاة كبيرة تسدّ المرارة. استعدّي لغرفة العمليات.

زال الألم فجأة فعدت إلى بيتي ونمت بهدوء. لكن إشارة هاتفية من الطبيب أيقظتني في الخامسة صباحاً. وصلته النتائج ويطلب أن أتوجه فوراً إلى المستشفى. التفتُ إلى زوجي فوجدته غافياً مثلما أحبّه، فمه منفرج وأهدابه طويلة. لملمت الحقيبة وذهبت إلى قسم الطوارئ في المستشفى القريب. كنت أحفظ مبانيه مثل راحة يدي. فيه ولدت ابنتي وأودعته أجزاء منّي. لكنني وجدت المكان مثل ساحة معركة. الكل مكمم والعاملون يرتدون ثياباً زرقاء تغطيهم من الرؤوس حتى الأقدام. أقامت «كورونا» عرسها الجنائزي في مستشفاي. صدّني الحارس عن الباب الأمامي فدرت حول المبنى ووجدت نفسي محشورة مع كثيرين في خيمة خارجية. المسعفون والممرضون يتحركون بين النقالات والكراسي، كأننا في مستشفى ميدانيّ من ذاك الذي رأيته في السينما. وكان هناك مرضى يتنفسون بصعوبة تحت كمامات الأوكسجين. أسمع شهيقهم يجاهد ليخرج من حبسة أضلعهم. تذكّرت صديقتي التي تحب غناء ديميس روسوس. كانت مؤمنة أن صوته يخرج عذباً صافياً لأنه يمرّ بفلاتر عديدة من طبقات الشحم في جسده.

دارت علينا ممرضة متوترة تجمع بياناتنا. جلست أنتظر أن تنادي عليّ وكان الألم قد عاد إلى خاصرتي. لا أدري كم طال انتظاري، لكن ممرضاً مدجّجاً جاء وأشار إليّ أن أتبعه إلى الداخل.

ـ هل تعانين من فقدان حاسة الشم؟

ـ عندي حصاة في المرارة.

دسّ عوداً قطنياً في فتحة الأنف وأداره عميقاً، حبست تنفّسي وتحمّلت مكرهة لا بطلة. أعاد الأمر مع المنخار الثاني وبالغ في الأذى. ثم سلّمني إلى ممرض ثان يرتدي ملابس المعركة، أيضاً، دفعني بكرسيّ نقّال إلى مكتب التسجيل. انتهيت في غرفة في الطابق العلوي باردة مثل ثلاجة. أعطتني ممرضة متدربة قنينة الباتادين وأردية ورقية للجسم والرأس والقدمين. أمرتني أن أغتسل بالمحلول المطهّر وأستعد. كلهم ضباط وأنا الجندية المطيعة. نفّذت الأوامر وجلست أرتجف في السرير. كلّمت سلمان ولم يكن قد انتبه لغيابي. عاتبني وقال إنه سيلبس ويلحق بي.

ـ في أي طابق أنت؟

ـ الزيارات ممنوعة بسبب الفيروس.

ـ أنتظر عند المدخل.

ـ المكان ساحة حرب. لن يسمحوا لك بالدخول.

ـ أنا آتٍ.

ـ مرضى «كورونا» كثيرون فلا تضاعف قلقي.

كنت أرتجف من البرد بردائي الورقيّ وشعري المبلول. سحبت كرسياً إلى جوار المدفأة التي في الجدار وتكوّمت عليه. ألصق ظهري بالمعدن فلا أشعر بحرارته. أخرج إلى الممر ألتمس مرضى في الغرف المجاورة. أبحث عن بطانية. رأيت أبواباً مُشرعة وأسرّة مرتبة نظيفة. كأن الطابق كلّه محجوز لي. تمرّ ممرضة فألحق بها.

ـ متى موعد العملية؟

ـ البلوك مشغول بالحالات الطارئة.

حلّ الفرج في السابعة مساء. حقنة مخدر تعقبها دوخة فسبات. سويعات مستقطعة من العمر غير مُسجّلة في الذاكرة. ولما فتحت عينيّ كان الكائن ذو الرأسين يطّل من باب الغرفة. طلبت أن يناولني هاتفي من الحقيبة وتكلمت مع سلمان.

ـ راحت المرارة وبقيت الحلاوة.

ـ مرارتك عسل.

في الليلة التالية تكرّر المشهد نفسه. تنتهي نوبة ممرضات النهار ويحضر توما وجوردان عند انتصاف الليل. رأس أحدهما يطلّ من وراء كتف الآخر. يأخذ الطويل ضغطي وحرارتي ويزيح القصير الشريط اللاصق عن جنبي ليتأكد من أنبوبة البزل.

ـ من أين أنت يا مدام؟

ـ احزر.

ـ لبنانية؟

ـ كيف عرفت؟

ـ سمعتك تقولين في التلفون الحمد لله.

ـ أنا عراقية.

ـ أوووه ... أنا آسف.

لم أضحك من قلبي مثلما ضحكت في تلك اللحظة. يهتز بدني ويؤلمني الجرح ولا يمكنني ضبط نفسي. يا ويلي علينا. صرنا مبكاة لشعوب الأرض، فرجة للرائح والغادي. أضحك والمخلوق المزدوج يضحك معي بفمين كبيرين وأسنان تلتمع في عتمة الغرفة.

ـ هل تحتاجين شيئاً؟

ـ حبّة لتخفيف الوجع، رجاء.

ـ سأضع لك المُسكّن في المصل.

لا أدري كم ساعة نمت. سبحت في فضاء آخر. يبدو أنني مضيت إلى البقعة البعيدة التي نبعت منها أول ما نبعت. بيت تحيطه حديقة ونافذة تحرسها نخلة. رأيت أخي الكبير يأتي ويجلس بجانب سريري. كان يرتدي ثياب العرب، تلك التي يلبسها عندما نقضي العيد في قريتنا. دشداشة رصاصية وعباءة مرعز وعقال. أمسك بكفيّ واحتواني داخل عينيه الواسعتين.

ـ يا بنت أمي وأبي. هذا الرجل ما عاد ينفعك. عاندتِ الجميع وتبعته. هاجر وأخذك من عشيرتك وبلدك. أعطيناه شجرة صحيحة مثمرة وها أنت تفقدين أحشاءك شلواً بعد شلو. أزالوا منك البلعوم وقلنا بسيطة. ثم الزائدة وقلنا الحمد لله. ثم رفعوا الرحم، ونصف الأمعاء، وبعدها الغدة، ودخلوا على الكلى والحوالب، وها هم يستأصلون مرارتك. إن زوجك، يا زهرتنا، يفكّكك كما تُفكّك السيارة القديمة، يبيعك مثل القطع الاحتياطية. آن الأوان أن تتركيه وتعودي إلينا.

ـ لكن ما زال في صدري قلب صحيح. وقلبي، يا أخي وتاج رأسي، يحبّ سلما.

بلاد الطاخ طاخ

كان عليه أن يرشوَ الحارس. تلك هي الطريقة الوحيدة لأن يحرّره من تلك الوقفة الأبدية. تمثال شمعيّ لامع لا حول له ولا قوّة، حبيس مخزن بدون شبّاك، لا يعرف ليله من نهاره. نهاية لا تليق بأمثاله من القادة الأشاوس. كلما قيلت هذه الكلمة في خطاب أمامه تمنّى لو يقاطع الخطيب ويسأله عن معناها. من يكون الأشوس؟ إذا كان هو واحداً منهم، كما وصفه الخطباء، فمن الأجدر به ألّا يقبل بهذا المصير، نزيل متحف بارد للشمع.

عاش حياته كلّها متمرداً. تحدّى من هو أقوى منه. هرب من بيت العائلة وذاق التّشرد. ناضل واغتال وطورد وانقلب وأعدم وجلس على سدّة الحكم. دكتاتور؟ ثم ماذا؟ الحاكم الضعيف هو من لا يتدكتر. وهو لم يكن ضعيفاً، لم يحترم في حياته سوى المستبدين. حارب وواجه قوى عظمى. داورهم وتحايلهم وتغلّبوا عليه. طاردوه وأمسكوا به. اعتقلوه. سجنوه. حاكموه. شنقوه وجعلوا منه أسطورة. وها هم يجعلون منه دمية شمعية بالحجم الطبيعي، لا عزاء لها سوى في الصّحبة الطيّبة. جيرانه في المتحف نجوم وزعماء ماتوا ميتات ربّهم. بالمرض أو الشيخوخة أو حوادث السيارات. وهناك آخرون قصفت السياسة أعمارهم. قادة مخاليع وملوك بادت عروشهم.

والحارس، ما له يبدو سكران هذه الليلة؟ سيمنحه ربطة عنقه مقابل أن يسمح له بزيارتهم. جميل هو قانون الرشوة، يسري في عالم الأحياء والميتين.

ـ صه أيها التمثال. لن أبيع نفسي بخرقة.

ـ سأعطيك خاتمي أيها الحارس.

ـ سآخذ الخاتم والأوسمة.

وافق على مضض. بمَ نفعته الأوسمة والميداليات؟ غداً سيكتشفون ضياعها ويعلقون له ما يشبهها. معادن رخيصة وشرائط ملونة مستوردة من تايوان، يعلّقها القادة على صدور جنرالاتهم الغانمين في حروب خاسرة.

تمت الصفقة والتماثيل نيام. شرح له الحارس خارطة المكان. هناك شخصيات شمعيّة معروضة للزوار وأخرى بادت شهرتها فسحبوها إلى المخازن. الليدي ديانا ما زالت حاضرة لكن دوقة وندسور غابت تحت الغبار.

مارلين مونرو تسحر الزوار وتفوز بالصور بينما ساح الشمع من وجنتي مارلين ديتريش. أين هو محبوبه جون واين؟ ليس الآن وقت الشهوات والمغامرات. عليه أن ينطلق بحثاً عن أقرانه الزعماء والحكّام.

زحزح ذراعيه فاستجابتا وسرت فيهما الدماء. خلع سترته واكتشف كم هي خفيفة بدون نياشين. حاول تحريك ساقه اليمنى وامتلأ غبطة حين تقدّمت به خطوة. حرك اليسرى وسار في العتمة. الشّمع يمشي بدون صوت. ينساب مثل شبح لا لون له. فارغ من المعاني والدّلالات. جسد من دون روح. لن يقلق سكينة الرؤساء الغافين والعواهل النائمين على وسائد النسيان.

يغادر الرئيس الشمعيّ موقعه ويمضي للتعرف على القاعات المجاورة. يضيء النور في صالة الملوك ويراهم مصفوفين حسب الأرقام والسلالات. الجدّ ثم الابن ثم الحفيد. تفرّج على الجورجات الإنجليز واللويسات الفرنسيين والليوبولدات البلجيك والفياصل العرب. كل منهم يرث كنيته من السابقين. كأن منابع الأسماء شحّت وجفّت. أول، ثان، ثالث، خامس عشر، ثم طاخ طاخ وتنقطع السلالة. تنبثق الجمهوريات ولا يتوقف الطاخ طاخ.

أصابه الملل في صحبة ملوك عاجزين. ينتقل التمثال إلى صالة الانقلابيين. تنفرج ابتسامته في حضرة الثوار والمجاهدين والضباط الأحرار. يؤدي التحية لعبد الناصر وعبد الكريم قاسم وبن بلّة. يمرّ بالقذافي مرور الكرام. يعانق صديقه بومدين وتتأرجح مشاعره أمام بورقيبة. يتأمل لينين ويصافح كاسترو يقيس قامته بقامة مانديلا. يتقدم نحو تمثال غيفارا ويُطرق حزناً. يشتركان في سمرة البشرة وحدّة النظرة. في اللحية التي نمت في محبسه. مات مثله، مغدوراً، لم يسلبه عزرائيل شبابه ووسامته.

مع صياح الديك الشمعيّ يعود الحارس مع مصباحه اليدويّ.

ـ انتهت الجولة.

ـ غداً أعطيك ساعتي مقابل ساعة حرية.

ـ أي حرية؟ أنت ميت.

ـ لكن سيرتي حية.

ـ هل تعرف أنهم يصورون فيلماً عنك؟

ـ خذ محفظتي السمينة ودعني أراقب التصوير.

يحاول الحارس الليلي الاعتراض فيقول له: نفّذ ثم ناقش. كان سليل قوم شعارهم: أعذبك أعدمك أشنقك أسحلك أشعل والديك. من يناقش تمثالاً؟ ينصاع حارس المتحف ويوافق على الصفقة. يتخذ الزعيم مكانه في شرفة علوية، خلف أحد الأعمدة. يتابع من فوق جهود المخرج والمنتج. كانا يبحثان عن الممثل الأقرب لتجسيد دوره. يأتي المرشحون بالتتابع ويخضعون لاختبار الصوت والحركات. يتفرج التمثال على اجتهاد الممثلين لتقليد نبرته، مشيته، نظرته النارية وقهقهته المعدنية. لا يرضيه الاختيار النهائي للمنتج ولا موافقة المخرج. اتفقا على نجم محبوب يضمن مبيعات شبّاك التّذاكر. لا يعنيهما أنه لا يملك هيبة الأصل. الممثل الخطأ في الفيلم الخطأ. لا يمكنه السكوت على هذه الفضيحة.

يستدعي الحارس ويضاعف الإغراء:

ـ سأمنحك تحويلاً من حساب في سويسرا.

ـ لا حسابات للأموات.

ـ لي أنصاري وهم يتصرفون بأموالي.

ـ ماذا تريد؟

ـ ألبسني بزّتي العسكرية.

يدير الحارس قفل خزانة الملكوت ويمضي ساعات بين أنواع الثياب. جُبب. عباءات. بدلات صيد. أزياء سهرة. قبعات. عمائم وقلانس. يعثر أخيراً على المطلوب ويسحب العلاقة من المشجب. ينفض الغبار عن البزّة الخاكية. يفرك الأزرار النحاسية والنجمات على كتفي السترة. يأخذها ويتوجه إلى موقع التمثال. يساعده في ارتدائها ويمنحه ساعة من الحرية.

هبط الزعيم المخلوع لكي يصحح مسار الأمور. لابد أن ينقذ الفيلم من الميوعة. ليس من اللائق ان يفشل فيلم عنه. يتفاجأ المخرج بحضوره ويكاد المنتج أن يفقد عقله. يتفاوض معهما حول اختيار البطل. يطول الكلام ويتطوّر الجدل وتعلو الأصوات. كل الأسماء المقترحة لا تناسب الشخصية.

ـ ليس هناك من هو مثلي!

ـ والحل؟

ـ أن أؤدي أنا الدور ...

نجح الفيلم نجاحاَ باهراَ. امتدحت الصحافة الوجه الجديد الموهوب. توقّع له النقاد مستقبلاً فنياً يبشّر بالخير. تم ترشيح خبير الماكياج للأوسكار. ذهبت صحافية شاطرة للفوز بمقابلة خاصة مع البطل. قيل لها إنه اختفى بعد انتهاء التصوير. كان قد توارى هارباً كي لا يعود إلى صحبة التماثيل. أعجبته المهنة الجديدة ووجد فيها ما يشبع غروره. ليته لم يضع عمره في متاهات النضال. اشتاق لبلد الطاخ طاخ.

انتظر الحارس عودة التمثال. أصابه اليأس وخشي العاقبة. اضطر لإبلاغ مدير المتحف.

ـ كأنّ أحد التماثيل ضاع يا سيدي.

ـ كيف ضاع؟

ـ لا أدري، لم أجده في مكانه.

ـ في أي قاعة كان؟

ـ في المخزن.

ـ من هو؟

ـ الجنرال فلان الفلاني.

ـ وهل تظنّ أن أحداً سيفتقده؟

الخوّافات

نحن سبع شقيقات كلنا خوّافات. أختي عاتكة، كبرانا، تخاف السرطان الذي التهم ثديها الأيمن. اجتثه الجراح وعوّضته بقطعة باردة من البلاستيك، تدسّها في صدريتها كل صباح فيعتدل مظهرها. وفي الليل تطفئ أختي نور غرفتها قبل أن تخلع ملابسها. ثم، وكمن يكشّ عنه عقرباً سامة، تخلع الثدي الكاذب وترميه في عتمة خزانة الثياب، محاذرة أن تنظر إليه. تعيش عاتكة خوفاً مستمراً من أن يمتد السرطان إلى ثديها الأيسر وبطنها وحنجرتها ورحمها وبقية أجزاء جسدها. مع الوقت، تعوّدت أن تعيش قلق الأشهر التي تفصل بين زياراتها الدورية المنتظمة للمستشفى، دون أن تتعود الخوف نفسه. أراقب هواجس شقيقتي الكبرى، فيحلو لي أن آخذها في حضني وأمسّد على شعرها الجميل وأطرد عنها أشباح الهلع. وأتمنى لو أفعل الأمر نفسه مع أختي عفاف.

عفاف تخاف من زوجها. من تجريحه المستمر لها لأنها أحبت قبله زميلاً لها في الجامعة، سافر إلى هولندا لإكمال دراسته ولم يعد. وحسام، زوج عفاف، يعرف تفاصيل قصة الحب القديمة، لكنه يرفض أن يقلب الصفحة. وهو ما أن يصبّ في جوفه كأساً من الكحول حتى يبدأ بتعذيب عفاف وتذكيرها بحبها الفاشل وبحبيبها الذي فضّل عليها نساء أوروبا. يقتل، ذلك التذكير اليومي الشامت، في أختي الأمل بحياة زوجية سوية. إنها تخا من إذعانها المستمر للإهانة، وتخشى أن يقودها التحريض الجارح إلى أن تهدم بيتها بيديها.

أختي عاطفة ليس لها زوج تخاف منه. لكنها تخشى الزمن. تضع وجهها في وجه المرآة ساعات طوالاً. تتحسّس التجاعيد الصغيرة. تشدّ ترهّل الرقبة. تدهن البقع الجافة وتطارد الشعرات البيضاء دون أن يطمئنها كل ذلك. سرعان ما تقفز إلى عينيها نظرة الرعب كلما فتح أحدهم سيرة العمر، بحيث أننا صرنا نتعمّد تجاهل الاحتفال بعيد ميلادها أو تذكيرها به. ذلك كفيل بأن يجعلها تتهاوى مريضة لعدة أيام، وأن نمرض، نحن السبع، معها.

كنتُ أفهم أشكال الخوف، إلا ذاك الذي يتملك أختي وصال إزاء مديرها في العمل. إحساس يتجاوز الرهبة المعتادة التي يشعر بها الموظف أمام رؤسائه. فزع حقيقي يجعلها تصلّي كل يوم وتنذر النذور لكي يتم نقل المدير إلى دائرة أخرى. سيكتب عنها تقريراً يؤدي إلى تقليل راتبها. سيحرمها من الترقية، او يفصلها من الوظيفة. وهي قد انتسبت إلى الحزب مع أنها لا تفقه شيئاً في السياسة، لمجرد أن تتحصّن إزاء مديرها. لكن هيهات. إنه يترصد كل هفوة. ومركزه في الحزب يجعله بمنأى عن صلواتها ونذورها. لن يُفصل.

لن يُنقل. لن يُحال على التقاعد. وستبقى وصال تحت رحمته، تطوي صدرها على هواجسها إلى ما شاء الله.

لكل واحدة منا خوفها الخاص. أختي منال تخاف على خطيبها الذي هو ابن عمنا. الشاب الذي فتحت عينيها على حبه. كانت سعيدة، يوم خطبها، إلى درجة جعلتها أجمل وأرشق وأكثر بريقاً. وكان نادر، خطيبها، مهندساً حديث التخرج وجندياً في الاحتياط. لكن الحرب قامت. وبدل أن ينهي خدمته العسكرية في سنتين، بات الأمر مرهوناً باستمرار الحرب. وذبلت منال. خبا بريقها وتحجّرت نظراتها. سكن القلق وجدانها كله. «ربّ لا تجعله طعماً للنار. ربّ ابعد عنه القذائف والشظايا واحمه من الأسر. ربّ أعده سالماً وخذ مني ما تريد». وكلما دخلت الحرب عاماً جديداً كبر خوفها. لم تتعود شقيقتي العيش على إيقاع الخطر. تفاجئها نوبة القشعريرة والتقيؤ كلما سمعت باستشهاد جندي من أبناء الجيران. تبقى واقفة مثل دمية خشبية فوق سطح الدار يوماً ويومين وثلاثة لعلّ نبأ يأتيها بأن خطيبها ما زال حياً.

وأنت أيتها النجوم الطيبة، أيكفي أن تُشرفي من علياك على أحزان الخوافات!

وصل الأمر بمنال، في إحدى نوباتها، إلى الصراخ وهي تشدّ شعرها: «ليته يموت مرة واحدة وأستريح!». ثم راحت تلطم رأسها نادمة على الكلمات المجنونة التي صدرت عنها. تستغفر ربها وتنتحب وتخمش وجهها. فشلت كل محاولات أختي منى لتقييد يديها ومنعها من إلحاق الأذى بنفسها.

منى؟ إنها الأخت التي لا تخاف إلا من ذاتها. عواطفها جامحة ونزواتها عنيفة. طبعها حاد نزق ينطوي على الكثير من الرغبات المعلنة وغير المعلنة. هي الأجرأ بيننا. لا تخاف أحداً على هذه الأرض خارج ذاتها. لكنها تدرك أن شخصيتها تقودها خطوة خطوة نحو الدمار. كنتُ أقول لمنى، عندما ننفرد معاً ونتبادل الاعترافات الحميمة: «أحسدك على جرأتك». ثم أدق على الخشب ضاحكة. أما هي فكانت ترد بيقين مخيف: «جرأة المرأة عنوان جميل لحياة قصيرة».

الأخت السابعة، أنا، أخاف من كلّ الأمور التي تفزع شقيقاتي. كلّها مرة واحدة. المرض الذي يترصدني في كل شهيق. السنوات التي تتقلب أيامها وأشهرها بأسرع من تقلب أوراق كتاب. الموت الذي يحصد الأقارب والأصدقاء مثل كف شرهة تقطف الأنفاس ولا تشبع. وكنت، أيضاً، أخاف زوجي، وأخشى تعليقات أخته الأستاذة الجامعية. كانت لا تُخفي انزعاجها من أنني نقلت الى أبنائي لهجة الحي الفقير الذي نشأت فيه.

أنا الخوافة السابعة، لا أخشى مديري فحسب بل كل رؤسائي في العمل. رئيس الشعبة الذي يريدني بدقّة الحاسبة الإلكترونية. رئيس القسم الذي ينظر ليَ نظرات وقحة كلما مررت من أمامه، تمرّ على الشعر وسرعان ما تهبط نحو الساقين. مسؤول شؤون الموظفين الذي لا يكفّ عن الاستفسار عن ميولي السياسية وميول أفراد عائلتي، حتى الجد السابع. وبقدر خوفي من زوجي، كانت ترعبني احتمالات انزلاقي إلى هاوية عاطفية طارئة تكون الملاذ الذي أحتمي به من الجفاف المحيط بي. وهكذا كنت أخاف الآخرين ومعهم نفسي. ألتجئ إلى أعين شقيقاتي اللواتي تقاسمن معي الغرفة واللقمة واللحاف، تبادلن المعاطف والأحذية ومشابك الشعر، ولا أجد في أعينهن فناراً يهديني، بل أصداء لذلك الذعر الرهيب الذي يسيطر علينا ... فأزداد انكماشاً.

إلى أن كا يوم!

نزلتُ من البيت أمسك بيد البنت والولدين أوصلهم الى المدرسة كعادتي كل صباح. كان الثلاثاء، يوماً مثل باقي الأيام، في شهر مثل باقي الأشهر، في سنة مثل غيرها من السنوات. أستيقظ في السادسة والنصف فأجهز الفطور وأوقظ الصغار. أغسل وجوههم وهم نصف نيام. أمشط شعورهم وألبسهم ثيابهم ثم أدس طعامهم في حقيبة الكتب. أسرع بهم إلى مدارسهم قبل أن أجري إلى عملي. أي شيطان جعلني، ذلك اليوم، أغيّر البرنامج؟ قلت لأبنائي إنهم لن يذهبوا إلى المدرسة. وإنني لن أذهب إلى عملي. سنركب الباص ونتركه يأخذنا الى المحطة الأخيرة. وخلال ذلك سنفكر كيف سنمضي بقية النهار.

تركنا حقائب الأولاد عند بائعة الخبز في أول الشارع. انتظرنا الباص لنتراصّ فيه وسط زحام الصباح. كنا مضطربين لمجرد إحساسنا بان أمامنا فرحاً كثيراً مختلفاً. سارت بنا الحافلة متثاقلة مثل حبلى، تفرغ ما في جوفها محطة بعد محطة، حتى أصبح لكل واحد منا متّسع للجلوس ومدّ الرجلين. لم أتبادل مع أولادي أي كلام. تركتهم لصخبهم ودهشتهم ورحت أتابع الحركة الدائبة على الأرصفة. أتساءل: هل بين هؤلاء إنسان لا يخاف ألبتة؟ وكيف يعيش إنسان لا يعرف الرهبة؟ كيف يسير؟ كيف يتكلم؟ كيف يضحك؟ كيف يحب؟

عند المحطة الأخيرة التفت إلينا السائق متسائلاً. يبدو أنه لمح في أعيننا تلك النظرة التي لا تُقاوَم. نظرة غريق يلتمس قشة تُبقي به على ضفاف العيش. وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء وازداد الطقس حرارة. لم ينطق بكلمة. وقف وخلع سترة العمل الزرقاء واكتفى بما تحتها من رداء قِطني قصير الكُمين. نزل ورفع عن الباصِ اللافتة التي تشير الى الاتجاه.

أزال الرقم وعاد إلى مكانه ليطلق نفساً جباراً اختلط فيه الشهيق بالزفير بالحمحمة ... وانطلق بنا.

قطعنا شوارع لم أرها من قبل. مررنا بأحياء جميلة نظيفة وبيوت هادئة وعمارات تبدو وكأنها مكاتب يعمل فيها مدراء متسامحون، تتنقل فيها موظفات آمنات. لم أكن أعرف أن مدينتنا تخبئ كل ذلك السحر وهي تستقبل ارتفاع قرص الشمس وتسارع حركة البشر. كانت، صباح الثلاثاء ذاك، أدفأ المدن وألطفها طباعاً. كيف لم نفطن إلى حضنها الوثير الجدير بالأمها؟

لكن البا توقف.

ما الذي يجعل السائق يدعس على الكابح، فجأة، فنندفع في مقاعدنا إلى أمام ثم نرتد ضاربين ظهورنا إلى الخلف؟ توقف لأن فتاة حسناء أشارت إليه تنوي الركوب. انفتح الباب الأوتوماتيكي وصعدت شابة تبدو نسخة طبق الأصل من شقيقتي منال. ماذا تفعل أختي في هذا الحي البعيد عن بيت العائلة؟ صعدت مرتدية فستاناً أحمر، هي التي خبأت كل فساتينها الملونة منذ ذهب خطيبها إلى الحرب. كانت تضحك وتضحك وهي تحتضنني وتقبل الأولاد وتقول إنها قررت اللحاق بِنَا في رحلة العمر. وقبل أن تستقر منال في مقعدها، توقف الباص من جديد لتصعد أختي عاتكة. كان شعرها الطويل مضفوراً في جديلة تنسدل بدلال على ظهرها، بعد أن كانت تربطه في مؤخرة الرأس مثل عجائز القرى. نظرت إلينا معاتبة وهي تبتسم بحبور:

ـ أهكذا تتآمران من وراء ظهري وتنطلقان في رحلة العمر من دوني؟

دار الباص بِنَا بخفة كأنه يتحرك وفق سلّم موسيقيّ أليف الألحان. ولما توقف في المرة الثالثة صعدت منى دون أن تكلف نفسها عناء التحية. جلست جنب السائق مباشرة وأراحت كفّها اليسرى على كفّه التي تُمسك بالمقود. سمعتها تغني له أغنية من فيلم قديم. ثم أبطأ برهة لتركب وصال. كيف تجرأت أن تترك الوظيفة في بحر الأسبوع وتثير غضب مديرها الجبار؟ وعلى تخوم المدينة، توقف السائق ليأخذ عفاف وطفلتها هبة. كانت تحمل معها حقيبة ثياب كأنها على سفر. ولم يكن يبدو عليها شيء من أحزان الفراق أو لوعات الحنين. ولما صعدت أختي عاطفة، أخيراً، هللنا جميعاً لإشراقتها التي جعلتها تبدو وكأنها أصغر من عمرها بعشرة أعوام. لم تسأل أي منا شقيقاتها إلى أين نتجه. كنّا متفقات على التجاهل. متواطئات مع السائق الذي أرسلته السماء. راغبات بالابتعاد. واثقات أن كل الاتجاهات ملائمة للانفلات السعيد ما دمنا معاً.

كانت المدينة قد أصبحت بعيدة عندما لاح أمامنا شاطئ. ولم أكن أعرف يومًا أن عاصمتنا تقع على بحر، أو أن هناك بحيرة تحاذيها. ولم أهتم بالسؤال. أأصدّق أطلس الجغرافيا وأكذّب عيني؟ نزلنا إلى الساحل الرمليّ، الكبار منا يسابقون الصغار. من الكبير؟ من الصغير؟ ما العمر؟ ما الحياة؟ ما الفرح؟ ما الخوف؟ ما الحب؟ ما الحرية؟ ما الجنون؟ أسئلة ممنوعة في فضاء رحب. تحت سماء مفتوحة على المستحيل.

ركضنا مع خيالاتنا نسابق ظلالنا حتى بلغنا الموج. كنّا نتعثر ونضحك ونصرخ ونعاني وطأة السرور. غطسنا، والسائق معنا، في لجة مالحة وغسلنا أعيننا بماء الطمأنينة. أزلنا عن جلودنا قشرة الخشية المتيبسة من دهور. ومن غمرة انهماكنا الجسدي والوجداني بمصافحة اللحظة النادرة، جاءنا صوت عاتكة تلهج بنشيد الحياة السريّ. التفتنا إليها وملح الموج يلتصق بوجوهنا. رأينا ضفيرتها محلولة وشعرها مبثوثاً في الجهات الأربع، تفكّ أزرار قميصها الأبيض المطرز وتترك نفسها للشمس.

صعقنا المشهد.

انكشف قميص عاتكة عن نهدين مباركين مترعين بالعافية!

سجدنا في الماء من هول المفاجأة. كان مجيء البحر إلى مدينتنا أسهل من عودة الثدي المُجتث إلى صدر أختي. وكانت ترقص فوق الرمال محلولة الشعر مشرعة القميص. كاهنة تبتهل للآلهة. تلهج بنشيد الحياة السريّ. هل مرّ الوقت علينا كما يمرّ على سائر البشر في سائر أنحاء الكون؟ كنا متفقات أن الوقت والزمن والساعة والعمر كلها من الأسماء الممنوعة.

لكن السائق رفع نظره إلى الشمس التي بدأت تتوارى وراء الأفق. سحب نفسه من أحضان منى ونفض رأسه من الرمل والغياب. قام ووقف وصفّق بيديه الضخمتين قائلا إن أوان العودة قد حان. غصصنا بالهدأة الجديدة علينا لمجرد سماع الصوت الآمر بالإياب. حاولنا الاعتراض فتداخلت أصواتنا بالحجج. أصر على قراره. قلنا لآدم الوحيد في جنتنا:

ـ اذهب ودعنا هنا.

ـ جئت بكن وأعود بكن.

توسّلنا. سقنا أبرع حيلنا. جرّبنا أساليب إغراء لم نجرّبها، لكنه لم يتراجع. كان قد نهض من اللجّة مثل كائن أسطوري عظيم البأس، وراح يطاردنا ويمدّ يديه ليسحبنا، رغما عنا، إلى الباص الجاثم هناك مثل قبر كئيب. لم نكن

شريرات، لكن رحلة العمر لا يمكن أن تنتهي بقرار من ذلك الغريب، حتى ولو كان شريكنا في المعجزة. جرّنا من أذرعنا فتماسكنا ضده. رفع يده ليضرب عاطفة فكوّرنا قبضاتنا وهجمنا عليه. كانت الشمس قد توارت وحلّ ظلام شفاف. والشقيقات السبع استعدن رشداً فقدنه من قسوة الخوف.

أمسكتْ منى باليد الخشنة التي أشبعتها تقبيلاً ولوتها الى الخلف. شلّت عفاف ومنال ساقي الرجل، أخطبوط الليلة العجيبة. كان السائق قوياً وكنا، بجموحنا، أشرس منه. ذكر جبار إزاء إناث مقهورات مُدرّبات على الاستسلام، ساعيات إلى ساعة أمان. أحطنا به بكل عنفواننا. كل واحدة منّا مستعدة لأن تغرس مخالبها في عينيه. لولا أن صوت عاتكة جاءنا باتراً:

ـ اتركن الحركة الاخيرة لي.

هجمتْ عليه محلولة الشعر، مكشوفة العافية، خارجة من حصار المرض، مغسولة الكفين من دبق الخوف. أطبقتْ على رقبة الوحش المزمجر دونما تردد، ونحن من حولها نستمدّ من ضعفنا قوة.

أخمدنا الأنفاس التي جاءت بنا إلى بحر بغداد، كي لا نعود مطلقاً منه.

مسدس من ذهب

نشف الدم في عروقي يوم استدعيت لمقابلته. وقد كان أهون عليّ أن أقف بين يديّ خالقي يوم الحساب، مثقلاً بعظيم ذنوبي وفوادح خطاياي، من أن أتواجه مع الرئيس. قال إنه قرأ قصيدة لي أعجبته. وكان يحفظ الأسطر الأربعة الأولى منها. عربدت عصافير البهجة في صدري لكنّني سرعان ما انتظرت الكارثة. هكذا هي الأمور مع الحكّام الجبابرة. يغرونك بالعسل فتنتعش أناك وبعدها يقطعون لسانك.

كانت قصيدة عادية من قصائد النثر، لا يمكن أن تلفت نظر قائد فذ مثله، خالد وفذ ومحبوب ومبجل وفارس الفرسان وأمل الأمة. تلك قطرات من بحر ألقابه. أيعجب فارس مثله بشعر لا وزن له ولا قافية؟ كلام مُرسل هبط على خاطري في ليلة أسرفت فيها بشرب العرق. تفتحت شرايين قريحتي ورغبت في التحليق مثل طير في الفضاء. وجدتني سليل جدي المفترض عباس بن فرناس. مغامر أندلسيّ صنع لنفسه جناحين من الريش وطار بجوار قصر الرصافة في بغداد.

كنت ثملاً وكتبت أبياتاً عن شاعر يجمع ريش الطيور على مدى عامين لكي يصنع لنفسه جناحين. يسطو على الوسائد من سطوح الجيران ويمزّق قماشها ويخرج ريشها. حتى إذا اكتمل الجناحان في العام الثالث طار فوق بيتهم، ثم فوق المحلة كلها والقرية والبلد وانفلت من منطقة الشرق الأوسط. أصبح جرماً سماوياً ضئيلاً يجيد كتابة القصائد وتنبعث منه رائحة اليانسون.

قال الفذ إن رؤيتي هائلة. وهي تعبير عن الطموح غير المحدود للشاب الذي لا تردعه الحواجز عن بلوغ أعلى مراتب الإبداع. إي والله، قالها القائد الملهم بهذه الكلمات ذاتها حتى ظننت أنّ شاعرًا فذًّا ومهيباً وعظيماً أيضاً يختبئ في داخله.

أهداني مسدساً ظننته لعبة يشاكسني بها، تمهيداً لشنقي. مسدس بحجم الكف، صغير ذهبيّ اللون. وخرجت من عنده سالماً أحمل هديتي وأتحسس عنقي. مشيت وعبرت الجسر وواصلت السير لأكثر من ساعة. وكنت أشدّ عضدي على الهدية التي أتأبط. علبة كبيرة من القطيفة الزرقاء في كيس، يرقد فيها مسدس كتكوت. عاهدت نفسي بأنّي لن أشرب العرق ولن أقترف الشعر ما بقي لي من عمر. لكنني سكرت ليلتها كما لم أسكر من قبل، وكما لم يسكر أبي وأجدادي ولا ابن فرناس. دفعت الكيس تحت السرير ونمت من المغيب حتى المغيب.

ماذا يفعل شاعر بمسد؟

فكرت أن أبيعه لأشتري بثمنه جهاز كومبيوتر. لكنني لم أجرؤ. لا أحد يبيع هدية الخليفة المنصور. وإذا امتلك شجاعة بيعها فلن يجد من يورّط نفسه بشرائها. بقيت العلبة في مكانها تحت السرير، تشلّني وتشتّت فكري. ما عدت قادراً على كتابة أي شيء. أخاف من الصور والمفردات ومن خيالاتي التي تودي بي إلى التهلكة. كدت أنتهي كشاعر وقلبت الصفحة. إلى أن ظهر صهري في الصورة.

كان عبد الرحمن، زوج شقيقتي الكبرى، مديراً عاماً للصناعات الغذائية. موظف مسلكيّ منضبط مطيع لا يفقه في الأمور الخارجة عن تخصصه. وتخصصه هو تحويل التمر إلى دبس. يسمّيه «عسل النخل». درس الكيمياء في روسيا وتعرقلت معادلة شهادته. لا أدري كيف تحوّل من اليوريا إلى الدبس. فتح معامل في البصرة والسماوة ومدن الخليج وصار خبيراً في مجاله، يتشدق بأنه يستطيع إنتاج الدبس من الورد ومن الباذنجان وحتى من الغائط. المهم أن يستطعم المستهلك المذاق.

سمع عبد الرحمن بحكاية المسدس من زوجته. وهي سمعت بها من البنت التي اعتادت تنظيف غرفتي. ركعت على ركبتيها وفردت خرقة المسح بين كفيها ومدت جذعها تحت السرير. أتابع حركاتها وتدهشني ليونة أجساد النساء في اقتفاء آثار الغبار تحت قطع الأثاث. مسألة فضول لا أكثر. لكن البنت عثرت هذه المرّة على كنز. فتحت الكيس والعلبة وتلمسّت ذهب المسدس وهي مفتونة.

جاء صهري صباح الاثنين، على غير عادته، وفاتحني في أمر «الكذا» الذي في العلبة. ليس بيننا من ينطق المفردة لأن للحيطان في بيوتنا آذاناً. ولم أكن في مزاج يسمح لي بالمداورة. حكيت له القصة كما حدثت. وبقي مفتوح الفم، ساكتاً مفتوح الفم. أعدتها عليه مختصرة:

ـ أعجبته قصيدتي.

ـ بشرفك؟

قام عبد الرحمن إلى النافذة ليتأكد من أنها مغلقة وليس هناك من يتلصص علينا. وعاد وجلس لصقي وطلب أن يرى الهدية. تناول منديلاً لكي يتلمّس «الكذا» ويتفحصّه، كأن المساس به بالأنامل المجردة حرام. قلّبه ووضع سبابته في الزناد. طوى ذراعه على صدره، على طريقة جيمس بوند. ثم التفت نحوي، بغتة، بعينين فزعتين:

ـ هل استخرجت رخصة؟

ـ أي رخصة؟

ـ رخصة حمل سلاح.

ـ ومن قال لك إنني سأحمله يا رجل؟

ـ حيازة سلاح تحتاج رخصة وإلا ...

أخذ صهري العلبة في كيسها ليقوم بما يجب من خطوات قانونية. تاه خيلاء وهو يقوم بتلك المهمة. دخل دائرة الأمن في الحيّ آمناً غير هيّاب. قال لمن استقبله إن المسدس هدية الرئيس حفظه الله. مكرمة كما هو مسجّل على الغطاء. تسابقوا على خدمته وتوجيهه نحو مكتب التسجيل وموظف الأختام. هات صورة خذ صورة. اشتر طابعاً يشتري طابعاً. وقّع هنا يُوقّع هناك. أنجز المطلوب وحصل على الرخصة في أقل من ساعة زمان. سلّمها له معاونو الأمن أنفسهم الذين كنا نعرفهم، نخشاهم ونتحاشاهم. سبحان مُغيّر الأحوال. لكن ما لم يخطر لي على بال أن عبد الرحمن، الموظف المسلكي النزيه، سيتلاعب بالهدية ويسرقها مني.

ـ تفضّل عزيزي، هذه رخصة حيازة السلاح.

ـ أين اسمي؟ إنها باسمك ... .

ـ وما الفرق بيننا؟

الحقيقة توجب عليّ الاقرار بأن صهري أهداني الكومبيوتر الذي كنت أتمنى شراءه. لكن شيطان الشعر هجرني وهجرته.

عمياء في ميلانو

شددت على عصا العميان البيضاء بكفي اليسرى وسرت أتلمس خطواتي في العتمة. امتدت يدي اليمنى في الفضاء أمامي، أصدّ بها كارثة قريبة. إنها حماقة، أن يترك إنسان مبصر عينيه في المشجب ويدخل دنيا الظلام.

كنت في يومي الثالث والأخير في ميلانو. انتهت المهمة التي دعيت من أجلها بسلام. لم تبق لي سوى ساعات أربع قبل الذهاب الى المطار. فسحة حرّة أقضيها كما أشاء بعد أن أديت قسطي للعلى. ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن أذهب إلى ذلك المعرض. كنت قد قرأت إعلاناً عنه في بهو الفندق. سأتفاخر أمام أهل بيتي، على الأقل، بأنني زرت معرضاً عجيباً في ميلانو. مدينة توزّع مطابعها الثقافة والفن على إيطاليا كلها.

لم يكن معرضاً فنياً بل رحلة إنسانية. إن الزائر مدعوّ لقضاء ساعة من الزمن في عالم المكفوفين. وقد أدهشني، عندما وصلت إلى المكان، أن أجد صفوف الطلبة أمام البوابة. أي مدارس جميلة تلك التي تأخذ تلاميذها إلى تجارب ميتافيزيقية!

قلت بالإنجليزية لموظفة الاستقبال أنني لا أتحدث الإيطالية. حركّت يديها بنفاد صبر، على عادة الإيطاليين، كمن يقول إن لا حيلة إزاء زبونة مثلي. رطنت قليلاً وهي ترجوني، أو هكذا فهمت، أن أجلس في الانتظار ريثما تستدعي دليلة تجيد الانجليزية.

بعد ربع ساعة جاءت فتاة رشيقة في أول العمر تسير بهمّة ونشاط. تقدمت مني وهي تستكشف طريقها بعصا بيضاء. دليلة المعرض كفيفة لا تبصر. كانت تبتسم وهي تقدّم لي نفسها بلغة إنجليزية راقية:

ـ أنا كريستينا.

ـ آسفة لإزعاجك يا كريستينا.

ـ أنت محظوظة لأنك الزائرة الوحيدة التي ستكون لها دليلة خاصة بها.

يا للنهار الأبيض! سرنا نحو المدخل تقودني دليلة عمياء إلى معرض تراه خيراً مني. تطلب مني أن أتسلح بعصا من حزمة العصي البيض المركونة قرب الباب. مدّت يدها نحو الجدار المغطى بقطيفة سوداء ودعتني لأن أتلمسه.

ـ لا تبتعدي عني لئلا تتيهي في الظلمة.

ـ كفّي على حسّك.

كان عليّ أن أتبع صوت كريستينا الذي سيقودني طوال الزيارة. قالت إن عليّ أن أبادلها الحديث باستمرار. أن أشرح لها ما أحسّ به من أجواء تحيط بي وأرض تتغير تحت قدميّ وأصوات تختلف من مرحلة الى أخرى. تقدمنا في ممر تزداد عتمته بالتدريج حتى صارت الدنيا من حولي سوداء مثل الحندس. أستعين بالعصا للتأكد من خلو دربي مما يمكن أن يعيق تقدمي. ألتصق بالجدار كي لا أصطدم بالتلاميذ الذين كانت ضحكاتهم تملأ الفضاء.

انتهى الجدار وتركني بلا عون. صارت أذني دليلي، وصوت كريستينا يؤنسني وهي تطرح عليّ السؤال بعد السؤال.

ـ هل اختلفت نوعية الأرض التي نسير عليها؟

ـ نعم، كانت صلبة مسطحة وصارت بليونة الطين. هل نحن في حديقة؟

ـ برافو ... نحن في حديقة. يمكنك أن تمدّي يدك وتتلمسي الشجر.

أمدّها بحذر وكأنني أخشى لدغة أفعى سوداء. أطمئن عندما تمسك أصابعي غصناً رطباً.

ـ أي نوع من الشجر هذا؟

ـ رويدك يا كريستينا.

تسألني وكأنها تراني وتبصر حركاتي. أقطف وريقة خضراء، هكذا أتخيل لونها، وأفركها وأرفعها الى أنفي. أصيح كأنني اكتشفت الطبيعة للتو:

ـ كاليبتوس، إنها شجرة كاليبتوس!

ـ برافو ... ها أنت تغادرين بسرعة عالم المبصرين بالأعين وتتأقلمين مع عالم الذين يرون بحواسهم الاخرى.

تركنا الحديقة وسرنا على رصيف صاخب واجتزنا شارعاً تتخلله مزامير المركبات. شنّفت أذنيّ وأنا أحاذر ألا تدوسني سيارة منها. عبرنا جسراً واقتربنا من نهر. ركبنا زورقاً رجراجاً وأنا أنفّذ أوامر كريستينا. أمدّ يدي لأتأكد من أن الزورق يمخر في الماء.

ـ ماء حقيقي يا كريستينا وليس مجرد تسجيل صوتي للخرير.

ـ كل شيء في عالمنا حقيقي مثل عالمكم.

تتبلل كفي وأضحك بجذل. أمسح خدي بماء أسود أشعر ببرودته ولا أراه. كيف للبهجة أن تنبثق من العمى؟ وصلنا نهاية الجولة. مقهى يستريح فيه الزوار من انفعالاتهم قبل عودتهم الى النور. تقدّمت من البار مهتدية بصوت النادلة تسألني عما أود أن أشرب. وفي انتظار فنجان القهوة، رفعت قدمي اليمنى، بحركة آلية، لأسندها إلى الدكة الخشبية الموجودة عادة في أسفل طاولة الطلبات. ارتحت راحة عظيمة عندما عثرت قدمي على الدكة ولم تهبط في الفراغ. إن عماي ليس سيئاً إلى الحد الذي تصورت.

أفتح حقيبتي المعلقة إلى رقبتي لأدفع ثمن القهوة. أستل منها المحفظة وأتحسس القطع النقدية. عليّ أن أتعرّف على قيمتها من أحجامها. أتبع صوت كريستينا وأتقدم لأجلس بجوارها على مصطبة ناعمة. مررت بكفّي عليها وتأكدت أنها مغطاة بالجلد. تخيّلت أنه أحمر رمّانيّ. أشرب القهوة ويتململ مارد الصحافة من قمقمه في صدري.

ـ كيف فقدت بصرك يا كريستينا؟

ـ ولدت هكذا؟

لم تجرّب دليلتي عالم المبصرين، وهي لا تظن أنها مختلفة كثيراً عنهم. فهي امرأة عاملة تقيم لوحدها. تقضي شؤون معيشتها بدون مساعدة. تقربّ فمها من أذني وتهمس بأنها تمرّ بتجربة حب. ولم أجرؤ على السؤال لكنها أردفت، من تلقاء نفسها، أن حبيبها كفيف البصر أيضاً.

ـ أنت ترين العالم بأذنيك؟

ـ بكلّ حواسي.

ـ برأيك، ما أجمل الأصوات في الطبيعة؟

ـ السكون. حيث لا صوت آخر.

حدثتني عن سكون الليل في المناطق الجبلية. كانت تستطيع تمييز الأرض العارية من الأرض المغطاة بالثلج. سمعت ابتسامتها الجميلة وهي تقول بما يشبه اليقين إن صمت الثلوج أجمل أصوات الطبيعة على الإطلاق. وسألتني

من أي بلد أنا فقلت من العراق. وعادت تستفسر عما تفعله عراقية في ميلانو.

ـ جئت للمشاركة في ندوة عن النساء والحروب.

ـ هل أنت أستاذة جامعية؟

ـ أنا صحافية، ولي كتاب ترجم إلى الإيطالية عن كتابات العراقيات في سنوات الحروب.

ـ قرأت كتابك!

هل سخرت منها لتسخر مني؟ دمعت عيناي وأنا أسمع كريستينا تحدثني عن برنامج إلكتروني يمسح الكتب ويحوّل حروفها إلى كلمات منطوقة. يمكن للمرء أن يسمعها بواسطة الكومبيوتر. قالت إنها قارئة نهمة. حدثتني عن بعض ما ورد في كتابي.

وصلت بيتي وأنا مسحورة. وقبل أن أضع حقيبتي انطلقت أروي مغامرتي في معرض المكفوفين. أحكي عن الدليلة العمياء التي قرأت كتابي. لم يصدقني ابني. نظر نحو أبيه وأشار بما معناه أن ماما أصيبت بداء العظمة. أما ابنتي، حبيبة روحي، فتطلعت نحوي بإشفاق وكأنها تسمع هذياناً لا يدخل العقل. حلفت للولدين ولزوجي أن ما أرويه حصل بالفعل. أنا نفسي لا أصدقه. لكنه والله حصل. وهزّ الرجل الطيب رأسه علامة التصديق.

لما أطفأت النور ووضعت رأسي، تلك الليلة، على المخدة بجوار رأسه، أغمضت عينيّ وحاولت أن أصغي الى الصمت الجميل في الطبيعة. لكن صوته جاءني، فجأة، وهو يلقي بنبرة مسرحية: «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ...». ولم يكمل البيت لأنه اختنق بضحكة أصابتني بالعدو.

نخلتي

انقلب فوقي فانكسر ضلعي. بهذه البساطة تجري الأمور بين المحبّين. مثل اصطدام سيارتين في بلد متحضّر. ينزل السائقان ويتصافحان ويتبادلان كلمات الاعتذار وأوراق التأمين. يمضي كلٌّ في سبيله. بدون ملاسنات ولا شتائم تطال الأخت والأم.

سمعت الطقّة المكتومة في جنبي الأيسر ولم أتوجع. هشاشة عادية في هذه السن. ربما كان من باب الدلال أن أهمس: «آه». لعلّه يتعطّف ويعتذر ويمسّد لي أضلاعي وفقراتي. لكنني كبرت على الدلال. حاذرت الحركة ورحت أتأمله وهو مغمض العينين. كان قد جاء بشمعتين مجاراة لرومانسيتي. أخبرته أنني أفضّل الحبّ في العتمة. أوقدهما في سكون الليل ونفخت عليهما بعد ثوان. جاء، أيضاً، بنبيذ زقّه في فمي. يرتشف ويسقيني. تبادلنا أحاديث كثيرة تتخللها قبلات. حكى لي عن جدّه الأسطوريّ ونمنا مع صياح الديك.

في الصباح، لم أستطع مقاومة عادة عجيبة من عاداتي في الفراش. تلحّ عليّ أغنيات
عبد الحليم الوطنية مع شقشقة النهار. رميت كل شرائط التسجيل القديمة واستغنيت عن المُسجّل الفليبس الصغير. عزّ عليّ التخلي عن بالأحضان ويا أهلاً بالمعارك. أتمتمها من طرف الشفتين لئلا أقلق غفوته. ثم ينفلت مني الصوت مع: ملايين الشعب تدقّ الكعب تقول كلنا جاهزين. يفتح عينيه ويتطلع نحوي لا يصدّق هذا الجنون. يعتدل ويطير منه النعاس حين أصل إلى: وبقرش الادّخار نتحدى الاستعمار. يدخل في الجد ويمتحن معلوماتي. ماذا أعرف عن قرش الادّخار؟ ولو كانت هناك سبورة في غرفة النوم لنهض وأمسك بالمسطرة وشرح لي الدرس كاملاً.

وخزني ألم خاطف عندما قمت لأغتسل. لم يصدقني وقال إن الضلع ليس خيارة طازجة لينكسر بسهولة. رشقت وجهي بحفنات الماء ومضت بي أفكاري إلى آماد أبعد. رأيتني حواء المخلوقة من ضلع المناضل الكسلان آدم. أتركه يهذر في الهاتف ويدور في رأسي حوار مواز قيد التأليف. ما الذي جاء بك، يا بنت الأوادم، إلى هذا السرير؟ وسادة قدّت من حجر وغبار شفّاف يغطي أحلام النائمين. ما لون عيني المرأة التي رقدت هنا قبلي والتحفت الغبار؟ لم أفتح خزانة الثياب لأعلّق فيها معطفي. قد أقع على معطفها. فيه تندسّ رائحتها.

أغتسل وأخرج إلى الحديقة أستقبل خريفاً رطباً. ألتجئ إلى النخلة الوحيدة في المنتصف وألفّ ذراعيّ حول جذعها. معصماي يخشخشان بأساور الفضة، هداياه لي، والحراشف الخشنة تخدش باطن ساعديّ. تعلّمت في المدرسة أن النخلات عمّاتنا. شقائق آبائنا. سمعنا مراراً حكاية الولد الذي استغرب أن يزرع جدّه العجوز نخلة.

ـ لن تعيش لترى ثمارها يا جدّي.

ـ زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون.

احتضنت النخلة لأنني وحيدة مثلها. نائية عن مدينة اجتثوا بساتينها. أرض الثلاثين مليون نخلة. الثلاثة آلاف مؤامرة. الثلاثمائة حزب. يطاردني بلد الألف ليلة حيثما حللت، وليس بينها ليلتي.

أستغرق في متعتي مع صوت المؤذن. هناك مؤذن في كل شارع من هذه المدينة. يلحق بي ومعه كوب قهوة. وأنا من حزب الشاي. لا يشبهني هذا الكوب ذو الأزهار الساذجة. لي استكاناتي ذوات الحواف الرقيقة كشفاه الأطفال. كلما انكسر واحد منها عوّضته بستّة. كأن أوعية الشاي ستنقرض ومعها تنتهي دنياي. تضيع مثل نخل السماوة الذي طرّته سمراء. بات سعفاً وكَرَبا.

ـ أعجبتك؟

ـ سأسمّيها نخلتي.

كان يتدثر كثيراً والشتاء بعيد. روب مخملي. طاقية. لفّاعة. وجوارب صوف. كهل جذّاب في إهاب عجوز يزرع نخلة ليطعم أحفاده. يأخذ بيدي إلى حوض النعناع والريحان ويقطف وريقات يدعكها ويقرّبها من أنفي. يجلسني على كرسي من القصب كأنه العرش. يشبه كراسي مقاهينا التي كانت من جريد النخيل. تنغرز في الطين وتخز سلّاتها سيقان الجالسات. تصطف على شواطئ دجلة تستقبل عبق الطّمى ودخان الشواء. وكانت هناك، دائماً، رائحة يانسون تأتي من مكان ما. عاش العرق مشروبنا الوطني!

يقطف زهرة من شجرة بنت القنصل ويدسّها في شعري. يجيد حركات المحبين. وأنا أيضاً ملت إليه حين غفلة. تلك هي سواهي القلوب. وأن أغفل متأخرة خير من ألا أغفل أبداً. يقول لي صباح الخير. صباح الفستق. صباح الياسمين. صباح الورد البلدي. صباح المشمش. لا تنتهي أصناف فواكه الرب وأزاهيره. نحن من ينتهي. وبعد القهوة تدقّ ساعة المناضل. مقالات وهواتف

واعتصامات وتدوينات وشعارات واستشهادات بالتاريخ. ينفتح الرشاش على فلول الرجعية والسلطة الغاشمة والإمبريالية الجشعة مصّاصة دماء الشعوب. وأنا أحبّه معلماً للجغرافيا يعرف أين تقع القرنة على الخارطة. عند اقتران النهرين. وأحبّه بدرجة أقلّ مناضلاً أصغي إلى دروسه في التثقيف الثوريّ وأقسّم كلامه على اثنين. لا يدخل رأسي منها سوى الرّبع. سيعتبرني سليلة البرجوازية البليدة. لا يفهم أنني كبرت على الخزعبلات. لم أعد ألقي بالاً للحناجر العالية. تستفزني الأحرف الخمسة لمفردة سياسة. لم يبق في العمر متسّع سوى لحرفين يأتلفان على شبهة الحب. يسأل القاضي في محكمة الشعب الشاهد:

ـ هل تعرف المتهم؟

ـ أعرفه سيدي بس مشتبه به.

هل اشتبهت به؟ كنا في السيارة والمذياع يغني: لست قلبي أنا إذن إنما أنت قلبها. أرخيت كفي على ذراعه فجفل. لا مكان للوداد خارج الغرف المقفلة. يستغرق في كلمات الشناوي ويقاطع الخلاب من ثرثراتي. وأنا أحب عبد الحليم إلا في الفصحى. لا يملك رهافة أستاذه عبد الوهاب وجفنه الذي علّم الغزل. أخذت أمي القطار من البصرة إلى بغداد لمشاهدة «الوردة البيضاء» وعادت إلى البصرة بعد الفيلم. عاقبها خالي بقصّ جديلتها وبالحرمان من المدرسة. بكت كثيراً ثم مسحت دموعها وتزوجت ابن عمها. تعلّمت القراءة من أبنائها. تهدهدنا بالأغنيات وتسحرنا برنّة صوتها. حنجرتها أجراس تتقارع ولا تتعب. طرّزت لنا الوسائد والشراشف الناصعة ومضت وتركتني أتقلّب في الفراش الغريب.

احتضنتنا تلك المدينة وأفسحت لنا مكاناً في قطارها المتضعضع. ننزل في نهاية الخط ونمشي حتى التعب. نبلغ السوق العتيق ونستريح على دكّة حجرية. يصخب طلبة المدارس حولنا، يزحموننا في جلستنا ونزداد التصاقاً. كان منسوب الوجد عندي عالياً. بان في عينيّ وارتسم على جبيني. الناس والطير والشجر تعرف أني عاشقة. غمرني نعاس الولع وكفّه في كفّي تحت حقيبتي. لحظة تشطب فاتورة العمر.

ـ هل أنت سعيدة؟

ـ لدرجة الموت بدون ندم.

أخذني إلى مطعم شعبيّ على الجرف. الزبائن يرحبون به والنادل يبشّ في وجهه ويملأ لنا الطاولة بأصناف الأسماك. المناضلون مشاهير على كثرتهم.

وكنت أحفظ وصية بَصْرية بألا أذوق السمك وأنا مقهورة. ستقف اللقمة في زوري ويتبقّع جلدي بهالات حمر. ليس من الذّوق أن أنغّص عليه الجلسة. ألفّ البصل الأخضر بالخبز وآكل وأقول له إن الأطباق رهيبة. الشبوطة تؤكل بالعينين. أشبع أمام شهيته. أفصص له اللحم الأبيض وأقشّر الروبيان. أداري شجني وأرفع اللقمة إلى فمه. أتفرج عليه وهو يمصمص ما علق بالعمود الفقري مثل ولد يجهل أصول المائدة. ينتبه لي ويغمز تلك الغمزة التي تأسرني. يتطلع إلى المطعم المزدحم بالدشاديش والبراقع وينتشي. يذهب ليصوبن يديه ويعود ويطلب لنا الشاي. يكتب على المنديل الورقي: «أحبك أكثر وسط الجماهير». يدور في رأسي: صوت الجماهير ... صوت الجماهير هو اللي بيصحّي الأجيال. أفرح مثل مراهقة وأخفي المنديل الأصفر في حقيبتي. فوح الحب وزناخة السمك طوع بناني.

يطلق المناضلون الوعود لينكثوها. يقولون اليوم كلاماً يتبرؤون منه بعد غد. تسقط من ذواكرهم مناديل المائدة وصباحات المشمش والفستق والياسمين. يحافظون على مبادئهم نظيفة بتغييرها كل يوم. مثل سراويلهم. وأنا أحببت حتى ثيابه الداخلية وتغزّلت بنعومة قطنها. كتبت له القصائد وما أنا بكاتبة ولا شاعرة. يتعطل عقلي ولا أفهم لمَ نتباعد سهواً أو على غفلة. كبرت ولم أتعلم أن الحب ليس نخلة معمّرة. لن يأكلوا مما زرعنا.

قبل أن أتقهقر وأضمحل من خياله، أوصيته خيراً بنخلتي. أشفقت عليها من نزقه. أراها تصاب بدودة تنخرها من الداخل. سيصبح جذعها أجوف وقد تتداعى وتسقط على رأس كائن ما. لو كنت هناك، تحت فيئها، لكسرت لي كلّ أضلاعي. أضحك على نفسي وعلى خيباتي الموحية الخلّاقة!

المترجم رجب

تطفّل أول على أفكار السيد رجب:

«هذا هو أنت يا عبد المحسن رجب. إن المرآة لا تخدعك، فهلا رضيت عن نفسك؟».

تحسّس عبد المحسن رجب ربطة عنقه الجديدة حتى سمع هسهسة الحرير الأوروبيّ تحت لمسات أصابعه. رمق العلامة الصغيرة في طرف الربطة بإعجاب ... إيه ... إن للهيبة لوازم.

وكان من لوازم هيبته أن ابتسامته تعلّمت متى تظهر ومتى تحتجب. كان ذلك منذ أن صدر أمر تعيينه بمنصبه الجديد: مترجماً خاصاً لصاحب الفخامة.

افتقد خلق الله، بمن فيهم أصدقاؤه وأقاربه، ابتسامته وروحه الناعمة. بل إن زوجته نفسها،السيدة محاسن محمود،أقسمت لأم صباح،جارتها الحميمة، أن عبد المحسن قد تغيّر كثيراً في الفترة الأخيرة. تشغل الوظيفة الجديدة كلّ أوقاته. حتى إذا عاد إلى البيت انصرف إلى مكتبته وعزف عن محادثة أولاده وبناته وسؤالهم عن أحوالهم في المدرسة، وهو أمر كان يحرص عليه، في السابق، أشدّ الحرص.

وخفضت السيدة محاسن من صوتها وهي تهمس لأم صباح:

ـ حتى حين ندخل إلى غرفة نومنا، أحسّ وكأنه ينظر إليّ ولا يراني.

ـ هل يقصّر في المصروف؟

ـ بل ازداد سخاء في الإنفاق علينا وعلى بيته.

ـ أين المشكلة، إذاً؟

ـ السخاء مطلوب أيضاً في الأمور الأخرى، يا أخيّتي.

ـ ألا ينام في فراشك؟

ـ ينام، لكنه كثير الأرق. وإذا أغفى فإنه يرطن في أحلامه باللغة التي لا أفهم. كأنني أرى الوظيفة الجديدة تنام بيننا.

تطفّل ثان على أفكار السيد رجب:

«المرآة لا تخدعك يا عبد المحسن. أنت تبدو تماماً الرجل الذي تمنيت أن تكون منذ أن تسلّلت إلى صدرك هواجس التمنّي. والآن ابتسم لنفسك، فليس في الغرفة غيرك والمرآة. ابتسم فأنت أهل للمنصب الذي وضعوك فيه.

لا، ما وضعني أحد. كافحت العمر كلّه على سلالم الدرجات الوظيفية. مترجم. مترجم أول. مترجم أقدم. رئيس مترجمين. وكنت أنشد الإتقان في عملي. قرأت وكتبت وطاردت المفردات في غياهب القواميس حتى أسلست لي الكلمات قيادها. ويم اختاروني للمنصب الجديد ما شعرت بمنّة من أحد. إنني أنا المتّان الذي سيجود بالمعرفة على الآخرين ... على الآخر الكبير ... على الدولة كلّها.

لا داعي لمزيد من التطفّل على أفكار بطل القصة السيد رجب. فقد بات المسكين مفتوناً بنفسه إلى حد يقترب من الهوس. وصار إتقانه لعمله وإبداعه فيه مصدراً لزهو غريب يتفاقم لديه. كان موقناً أن لا أحد سواه يمكن أن يقوم بما يقوم هو به. إن الدولة عاجزة عن الاستغناء عنه. إن لقاءات صاحب الفخامة تصاب بالكساح، بالشلل، إذا تخلّف هو عنها. إن مصلحة البلد بأكمله تتوقف على مهارته في نقل المحادثة. إن هفوة صغيرة ستقود البلد حتماً إلى الكارثة!

لكن أغرب ما في الأمر أن انطلاقة السيد رجب كانت تنكمش إذا كان صاحب الفخامة متألقاً في لقاءاته، بليغاً في خطبه، واثقاً من مواقفه. وعلى العكس من ذلك، كان المترجم يتجلى، كأروع ما يكون التجلّي، في دقة عبارته وبلاغة أسلوبه وقوة شخصيته إذا ما شعر بأن صاحب الفخامة ليس على ما يرام، مشتّت الأفكار، مفكّك العبارات، مزعزع الموقف.

يبلغ رجب ذروة لذّته حين يفلح في رأب التصدّع البادي على سيّده فلا يشعر المقابل بما في الموقف من تلجلج، ولا ما في الحديث من اهتزاز وهفوات.

نهاية السيد رجب:

حين عقد المؤتمر الدوليّ للحد من التسلّح، كانت حالة عبد المحسن رجب قد بلغت حداً يُنذر بالخطر. بات المترجم مسكوناً بهاجس أنه هو من يُضفي على صاحب الفخامة تلك الهيبة التي يتمتّع بها في المحافل الدولية. أليس هو من يُنمّق العبارة ويسبك الفكرة ويجزل اللفظ ويغضّ الطرف عن الأخطاء وزلّات اللسان؟

وقف إلى يمين صاحب الفخامة وهو يردّ على أسئلة الصحافيين. وحرص، بوعي منه أو بدون وعي، على أن تحمل ربطة عنقه العلامة الشهيرة ذاتها لربطةِ سيدّه. تعطّر بإسراف ودهن خصلات شعره الأشيب بالزيت وارتشف شراباً يُطرّي الحنجرة. ألقى نظرة مطمئنة على نفسه في المرآة وهمس بإعجاب باللغة التي يجيدها:

ـ واندرفول!

وبدأ المؤتمر الصحافي. وسئل صاحب الفخامة عن دور بلاده في حركة عدم الانحياز فأجاب بالتفصيل. ونقل المترجم كلامه بالدقّة المعهودة فيه. وجاء سؤال ثان عن خطر سباق التسلّح على السلام العالمي. ونقل رجب الجواب بزهو شديد. وجاء سؤال وراح جواب، وسؤال عاشر، وجواب ثاني عشر ... و ... .

توقّف صاحب الفخامة عن الحديث لكن المترجم لم يتوقّف. كان قد وضع يده في جيب بنطلونه وراح يلوّح بالأخرى مهدداً الدول الكبرى، شاتماً سباق التسلّح، متأسفاً على الحضارات الإنسانية المهدّدة بالفناء. كلّ ذلك بلغته الأجنبية بالغة الطلاوة، غير مُلتفتٍ للأفواه المفتوحة دهشة من حوله، ولا بالصدمة البادية على وجه سيدّه.

وصعد إلى المنصة رجلان مدنيّان اقتادا المترجم من كتفيه إلى خارج القاعة. وتحوّل صمت المفاجأةِ إلى قهقهات مُدوّية وتعليقات ساخرة، بينما كان السيد رجب يلوّح محيياً الجماهير وقد تحوّلت ضجتهم في أذنيه إلى تصفيق شديد.

الكاميرا الأولمبس

هذه ليست قصة، لعلّها رفقة. والرفيق، في عُرفي، قبل الطريق. وقد حُبيت متعة مجالسة هذا أو تلك من الأصحاب، نستظلّ نخلة مُتخيلة أو نتمشى الهوينا في دهاليز الذاكرة. اعتدت أن أحكي كثيراً وأصغي أقلّ. ليس ذنبي أنني ولدت ثرثارة. وبالفصحى مِهْذار. وآه كم أحبّ حذف التاء المربوطةِ من آخرها. صفة يتساوى فيها الجنسان، تليق بهذا الزمان. لكن يحدث، أيضاً، أن أصغي وأن أتعلّم. وهكذا سمعت نصيحة نعمان وليتني لم أسمع.

قال إن الكاميرا ممتازة لكنها صارت عتيقة.

ـ خذيها إلى أوانيس. سيفكّكها وينظفها ويزيّتها ويعيدها أحسن مما كانت.

ـ أوانيس مَنْ؟

ـ مصوّر أرمني عتيق، دكانه قريب من عقد النصارى.

ـ وهل يجيد تصليح هذا النوع؟

ـ يُصلّح ويُجدّد. ستشتغل معك خمسين عاماً أخر.

حين نطق بالجملة الأخيرة نبعت حبيبات باردة على جبهتي. إذاً فهذه الكاميرا عندي منذ نصف قرن. يتذكر ابن خالي اليوم الذي افتككتها فيه منه. كان ذلك في أول طلعتي. صحافية صغيرة مبتدئة تلتحق بالعمل في قسم التحقيقات. مراهقة عاهدت نفسها، عهد شرف لا رجعة فيه، أن تشتغل بمهنة البحث عن المتاعب أو تموت جوعاً. لم يكن نعمان لطيفاً وهو يُذكّرني بأنني تماديت في العمر. ليتنا لا نكتهل. أما الشيخوخة فلن أسمح لها بالمرور على لساني. ما زلت أشعر أنني كما الأمس، كما الأول من أمس.
لا تغفل جفوني عن شوارد دنياي. لكن يومياتي في المهنة تغيّرت. لم أعد أجري وراء الأدباء والفنانين لإجراء المقابلات والتقاط السحنات بكاميرتي. اكتفيت بمقال أسبوعي من النوع الذي تُجبر به خواطر الزملاء المخضرمين. لم أهرم لكن «البحث عن المتاعب» لم يعد كالسابق. ماذا كان اسمه ذلك الأستاذ في قسم الصحافة؟ يحرّك الدكتور منير التكريتي أرنبة أنفه يساراً، كأنه يشمّ رائحة مُنفرة، ويقول: «صارت مهنة كلّ من هبّ ودبّ».

والكاميرا من نوع أولمبس. حصل عليها نعمان حين كان يدرس في أميركا. جنيّة بحجم الكف، لا تخطئ الصور حتى لو وضعتها بين يدي أعمى. صغيرة واقتصادية. تتسع كِل لقطة على شريطها لصورتين. يعطيك الفيلم ذو الاثنتي

عشرة لقطة أربعاَ وعشرين صورة. أعلّق حزامها في رقبتي وأذهب لتنفيذ واجباتي. أتباهى بأنني مُحرّرة ومُصوّرة. وكان أن صدّقت نفسي وتلبّستني الهواية. باعني زهير، مصور المجلة، عدّة روسية لتظهير الأفلام. يسمّيها «ستوديو» وهي ليست أكثر من حقيبة خشبية يرقد فيها، على جانبه، جهاز لطبع الصور. اشتريتها بعشرين ديناراً بالتقسيط. يقف لي عند باب المحاسب آخر كل شهر ويستلّ مني خمسة دنانير. يطير ربع المرتب قبل أن يتدفأ في محفظتي.

هذه ليست قصة مُقررّة على قارئها. يمكنه الخروج من الصف متى يشاء. أو أن يصبر ليرى كيف غدا حمّام بيتنا غرفة سوداء لغسل الأفلام. كان المكان الوحيد الخالي من نافذة يتسلل منها ضوء النهار. أنتظر أن يهجع أهل البيت وأبدأ العمل. أضيء لمبة حمراء صغيرة وأطبع الصور. أفتح علبة الفيلم وأركّب الشريط في أعلى الجهاز. أضع الورقة الحساسة الصقيلة تحت المجهر. أتركها تتعرض لحزمة من نور. أنقلها بالملقط إلى وعاء السائل الكيمياوي وأحرّكها باحتراس. أحاذر أن تتخدش. أراها تتلون بدرجات الرمادي وتظهر الأشكال عليها بالتدريج. أختار درجة استوائها فأنتشلها من الوعاء وألقيها في المحلول المُثبّت. أعود لانتشالها بعد هنيهات وألصقها مبلّلة على قيشاني الجدار، بخفّة خباز يفرد عجينته ويلطشها بأرض الفرن. أنتشي بإنجازي وكأنني اخترعت صاروخاً. إنها الأيام التي كنّا نسخر فيها ممن يتشدّق بإنجازاته، نقول إنه مخترع الجاجيك. خليط اللبن الرائب بالخيار والثوم. المزّة الأزلية لمشروبنا الوطني المبجّل.

أزعجت رائحة المحلول الكيمياوي أهل الدار. غافلتني أمي وأفرغت كل الدوارق في فوهة المرحاض. طردتني من الحمّام ولم تأبه لغضبي. صرت بدوية تترحّل مع موهبتها بدون سقف يأوي إبداعاتها. جاء نعمان لمواساتي فلم أتواسَ. أخذ الكاميرا بين يديه وأعاد عليّ حكاية سمعتها منه ألف مرّة.

ـ هذه الأولمبس تحفة، أهداني إياها أستاذي في جامعة شيكاغو.

ـ كأنك تريد استرجاعها؟

ـ حاشا، لن ألحس بصقتي.

تفوّق ابن خالي في الثانوية وحصل على بعثة لدراسة الهندسة في أميركا. ولكن من يكفله قبل السفر؟ يشترط القانون ربط الطالب بكفالة تضمن عودته للعمل في البلد. في التعليمات الرسمية يسمونه الوطن. وكانت الكفالة أربعمائة دينار. مبلغ هائل يومذاك، سنة تسع وأربعين. وكان على أبي، الموظف الوحيد في العائلة، أن يتقدم لكفالة نعمان. لكن مرتب

الضابط لا يفي بالشروط. عندها تطوّع زميل أبي، الزعيم منيف السالم، ليكون شريكاً في الكفالة.

كان السالم بهائياً يعتنق عقيدة محدودة الانتشار. درس القانون في أنقرة وارتدى بزّة العسكر. تدرّج في الرتب حتى أصبح قاضي قضاة الجيش. وبفضله تيسّرت الأمور وسافر نعمان إلى أميركا. ثم عادت وتعسّرت بعد أشهر. إذ قرر منيف السالم التقاعد من الوظيفة ومغادرة البلد. ترك مكتبه في وزارة الدفاع وأخذ عائلته وذهب للتبشير في جزيرة سيشل. وقبل سفره، أودع كتباً قيّمة تتعلق بعقيدته أمانة عندنا.

بغياب الكفيل المُشارك توقف صرف مرتب البعثة لابن خالي. ألم أقل لكم إنها ليست قصة؟ تقدم جارنا حزقيل غريبة وضرب بكفّه على صدره: «أنا لها، مستعد لكفالة ابنكم». بعد ثلاثة أيام تسلّم نعمان برقية من أبي جاء فيها: «كفيلك السابق بهائيّ واللاحق يهوديّ».

جمع حزقيل غريبة ثروة صغيرة من تجارة العباءات النسائية. كفل نعمان فاستعاد ابن خالي مرتبه الشهري. الفرحة التي لم تدمْ. إذ بدأ تسقيط الجنسية العراقية عن اليهود وأغلق حزقيل غريبة دكانه. أخذ زوجته وبناته وهاجر إلى إسرائيل. وكانت ابنة خالي، الطبيبة المتخرجة حديثاً، هي الكفيل الجديد الذي أنقذ الموقف. وبهذا أكمل نعمان دراسة الهندسة وتفوّق في تخصّصه. أحبّ ابنة أستاذه، كما يحصل في الأفلام حين يحب الموظف البسيط ابنة صاحب الشركة. عرض عليه أبوها البقاء في شيكاغو والعمل معيداً في الجامعة. أهداه يوم تخرّجه كاميرا صغيرة مصنوعة من الحديد.

كتب نعمان لأبي يستشيره في موضوع بقائه في أميركا. ووصله الرد في سطر واحد: «سأضطر لبيع البيت وتسديد كفالتك وسأنام مع عمتّك والأولاد في الشارع» سطر كافٍ شا.

تداولت عائلتنا الحكاية حتى كادت تعلّقها على شجرتها. مللت من سماعها لكن شيئاً في تفاصيلها جعلها جزءاً من سيرتي. فقد رافقتني الكاميرا الأولمبس في كل تحقيقاتي ومقابلاتي. ركبت معي الطائرة في أسفاري واستكشفت معي مجاهل ظننتها مغامرات. ذلك أن المغامرة الحقيقية كانت يوم عاد الزعيم منيف السالم من رحلة التبشير في سيشل وحصل على بيت من بيوت الضباط في حي اليرموك. وما بين سفره وإيابه كان العراق قد تحول من الملكية إلى الجمهورية. وتلت ذلك عدة انقلابات. كل عهد يشطب على ما قبله ويفتح صفحة تلائمه. تتعدّل القوانين فتصبح البهائية ديناً أخرس. تهمة تعرّض صاحبها للسجن إذا هو جاهر وبشّر بها.

سنة بعد سنة كان الخوف يدخل بيوتنا ضيفاً ثقيلاً يفسد علاقاتنا. وتحت ضغط الخوف نقلنا كتب الزعيم منيف من بيتنا إلى مزرعة عمّي. إنه يشتغل في الفلاحة وليس عسكرياً مثل أبي. لن تراقبه أعين الأمن رقابتها للضباط. وكانت الكتب، حتى ذلك الحين، محفوظة في السرداب، ملفوفة بالنايلون مثلما تركها صاحبها. لم تمتد إليها يد ولم تقرأ عين ما تحتوي. وفي واحدة من لحظات الهلع أحرقت زوجة عمي الكتب التي كان السالم قد ائتمننا عليها.

أما آن لهذه القصة التي طالت أن تنتهي؟ حدث ما كنا نخشاه. كبس رجال الأمن بيت الزعيم المتقاعد منيف السالم واعتقلوا كل من فيه. حاكموا النساء بتهمة التبشير. وكان الأب قد قارب التسعين، أقعدته الشيخوخة وتصاريف أقداره. أفرجوا عنه وحُكم على زوجته وشقيقتيه بالسجن لسبعة أعوام. ومثلها لابنته الوحيدة منال. وبعد فترة وجيزة مات سالم مهموماً في داره. كانت منال ملاكاً من ملائكة الفردوس. درست الطب ومارسته قبل دخولها السجن. تطوعت لتطبيب السجينات والسجانات. ولما مات أبوها سمحوا لها بأن تقيم مأتماً له في عنبر النساء. وذهبت للعزاء مع أمي وعماتي وزوجة عمي. كانت تلك هي المرة الأولى التي أجتاز فيها أسوار سجن أبي غريب. دمغوا أرساغنا بالحبر الأزرق لكي نتمكن من الخروج. قرأنا الفاتحة ودارت علينا إحدى السجينات بفناجين القهوة المُرّة. خرجنا بأعين متورمة وأرواح ثقال.

تمرّ السنوات. وفي أحد أعياد الثورة يصل خبر إلى الجريدة التي أعمل فيها بأن الرئيس سيلقي خطاباً. سيعلن خبراً سارّاً. عفو عن السجناء. توزع الزملاء على مراكز الاحتجاز، تلك الليلة، لتغطية وقائع الفرحة. وطلبت أن تكون حصتي قسم النساء في السجن المركزي. حملت كاميرتي الأولمبس واقتادتني سيارة الجريدة إلى ضاحية أبي غريب. فكّرت، طوال الطريق، بمنال السالم. كانت صديقة لكبرى شقيقاتي. أذكر منها وجهها الأسمر المستدير مثل رغيف طالع من الفرن. كانت لها ضفيرة سميكة لم تعرف المقص. تشبه الدكتورة منال الهنديات أكثر من العراقيات. وكنت أسمع من أمي أنها محبوبة السجينات. تسهر بجوارهن حين يمرضن. حتى السجانات يحلفن برأسها.

ما زال المنظر محفوراً في بالي. كانت ليلة صيفية رائقة من منتصف تموز. أسرّة السجينات مصفوفة في باحة مسورّة ومكشوفة. فوق كل سرير شرشف أبيض ووسادة. رحبت بي مديرة السجن وشربنا عصيراً بارداً. جلسنا في طرف الباحة التي جيء لها بجهاز تلفزيون. يعلن المذيع عن خطاب وشيك فيرتفع التوتّر. فلما بدأ الخطاب ساد صمت يحبس طبولاً في

الصدور. طال كلام الرئيس عن الأمة العربية ومؤامرات الاستعمار والصهيونية. ازداد الترقّب ونفاد الصبر. ثم جاءت العبارة المُنتظرة: سعل أحمد حسن البكر مرتين وتحشرج صوته ثم نطق الدرّة:

ـ قررنا ما يلي: إسقاط سنوات المحكومية الباقية عن جميع السجناء.

انفجرت الهلاهل في باحة السجن. ثوان معدودات وهبط طائر الحزن من السماء المفتوحة. أكمل الرئيس الجملة:

ـ باستثناء المدانين في قضايا الماسونية والبهائية.

لم أجرؤ، تلك اللحظة، على تصوير منال ولا قريباتها. لم أقترب منهن للسلام عليهن. وظل الأمر يحزّ في نفسي لسنوات. لم أكن خائفة من وشاية أو خجلى من حريتي وحبسهن. تلك مشاعر عادية لبشر عاديين. لكن تلك الليلة لم تكن مثل الليالي. وقد انسحبت كل المشاعر من داخلي. تركتني للخواء. أنهت البهائيات محكوميتهن وخرجن من السجن. وكنت قد سافرت للالتحاق بزمالة تدريبية. لم ألتق بالدكتورة منال إلا بعد سنوات. جاءت تعزّي بوالدي. ولم أقرأ في عينيها الواسعتين لوماً أو شبهة عتب. صعدنا إلى السطح لنتحدث بهدوء. ومن مكاننا كنا نشاهد الدبابات الأميركية تقطع شارع الربيعي.

ـ أريد أن أكتب قصتك في السجن.

ـ هس، عقوبة عقيدتنا صارت الإعدام.

وضعت يدها على فمي لكيلا ألحّ في الطلب. لكن شهرزاد لم تسكت عن الكلام المباح. قالت إنهم أعادوها إلى الوظيفة بعد أن خرجت من السجن. جاء تعيينها طبيبة في مستشفى تكريت. زارهم الرئيس في واحدة من مداهماته التفقدية. وصل إلى المستشفى في الثامنة صباحاً، ساعة بدء الدوام. لم يجد طبيباً في مكانه سوى الدكتورة منال. دار على عنابر المرضى وسمع منهم أدعية له بطول العمر وللدكتورة منال. سأل الممرضات فامتدحن الدكتورة منال. التفت إلى مرافقه وأمر بتكريمها. ارتعبت منال وهاجت عصافير التوجس في صدرها. اقتربت من الرئيس وهمست له بأنها كانت محكومة في قضية البهائيين. أفشت له بما يمكن أن يشينها، لكي يكون على بينة من أمره. سمعها ولم يعلّق. أدار وجهه ومضى.

بعد يومين وصلتها هدية. سيارة تويوتا تحمل على زجاجها الخلفي عبارة مخطوطة بخط جميل: «مكرمة الرئيس القائد». الويل لها إذا مسحتها. وفي

إجازتها التالية قادت سيارتها إلى بيت أسرتها في بغداد وركنتها عند رأس الشارع. تخجل أن توقفها أمام دار المرحوم منيف السالم.

خرجت لتوديع منال وتعانقنا بحرارة. كأننا نتستّر على آثام وطن. فكيف تكون القصة التي لا تشبه القصص؟ أسأل كاميرتي الأولمبس وتصغي لي. تبتسم أو تحرد. حتى بعد أن توقفت عن العمل في قسم التحقيقات وخفّ اعتمادي عليها. اقتنيت فيما بعد كاميرات رقمية لكنها بقيت الأثيرة. لا أثق إلا بها. أبوح لها بأسرار صغيرة، على سبيل الرشوة، لئلا تطالبني بما هو أكبر. يخيل لي أنها اختزنت حكايات غرامي وورطة زواجي وطلاقي. حفظت صور أعياد ميلاد ولدي الوحيد. سافر قرة عيني للدراسة في الخارج وكفلته مثلما كفل أبي نعمان. غير أنني، في لحظة تنخر قلب الأم، شجعته على البقاء في الخارج. مدينتنا شوارع يمشي فيها الخوف. أسدد كفالة ولا أدفع فدية اختطاف.

كنت طفلة يوم عاد نعمان من أميركا بالباخرة، عبر بيروت. اشتغل في مجلس الإعمار وأقام عندنا. اختار غرفة الغسيل فوق السطح. مكان معزول عن ضجيج البيت يصلح لدفن قصة حب. أحضر معه جهاز غرامافون وأسطوانات فرانك سيناترا وجعل من غرفته حضناً أنيقاً. يعود من عمله ويصعد إلى غرفته ليستريح قبل الأكل. يضع أسطوانة في الجهاز فأسمع صوت الموسيقى. أصعد الأدراج راكضة إليه فيعلّمني رقصة «الراسبا». وكانت هناك تلك الكاميرا معلقة وراء الباب، مع البيجاما والبشكير. أرمقها وترمقني ولم أعرف أنها ستكون من نصيبي.

مضيت في الثرثرات وكدت أنسى أوانيس. فتح المصور الأرمني كفيه وتلقّى كاميرتي العزيزة ببالغ الحنوّ. تخيلته قابلة تتلقّف وليداً. رفعها نحو المصباح المنضدي وتفحصها باهتمام. قال إنه قرأ عن هذا النوع النادر في المجلات لكنه لم يتشرّف برؤيتها. كان مثل كل الأرمن، صاحب شغف، ومن أولئك المدمنين الذين يشربون منذ الضحى. لا يعتدل دماغه ويباشر العمل إلا بعد كأس أو كأسين. صرفني بسرعة لأنه لم يكن صاحياً بعد. أي لم يكن سكران. واتفقنا أن أعود إليه بعد أسبوع. أسبوع اشتقت فيه إلى الأولمبس، قطتي الأليفة. افتقدت ثقلها في حقيبة يدي. لكن أوانيس غدر بي. ولم تكن شيمته الغدر.

رآها فلان الفلاني وأصرّ على أن يأخذها منه. كان يهوى جمع الكراكيب العتيقة وقد أعجبته كاميرتي الأنتيكة. حاول المصوّر أن يثنيه وعرض عليه ما هو أقدم منها وأغلى. لا فائدة. توسّل واستعطف. لا فائدة.

ـ إنها أمانة عندي يا مولانا، وليس من طبعي أكل الأمانات.

ـ بسيطة، سنعوّضك.

تذلّل أوانيس وتمسّك بالكاميرا. لكن لا حياء لمن تنادي. ذلك أن مولانا من سادة المدينة الجدد. يتحرك بسيارة مصفحة مع موكب وحراسة. لا أوانيس ولا ربّ أوانيس يملك الوقوف بوجهه. أخذها ومضى ورمى للمصوّر خمس ورقات خضر.

رصاصة في القلب. إي والله. هكذا جرحتني الحادثة. بقيت أديرها في رأسي طوال ثلاثة أيام. لم آكل ولم أشرب ولم أغسل وجهي. وفي اليوم الرابع ارتديت تنورتي السوداء الطويلة وسعيت إلى مقر فلان الفلاني. أبرزت هويتي القديمة للحرس وقلت إنني مكلفة بإجراء مقابلة معه لوكالة أنباء عالمية. استقبلني وكأنه كان ينتظر خطوتي. لم يحترم شيباتي ويقف كما تقتضي الأصول. هزّ كفّه بالسبحة من بعيد. كان محاطاً برجاله، ضحك ضحكته البلهاء فاخترت أكثر ابتساماتي صفرة. بيني وبينه ثلاثة أمتار هي مسافة مكتبه الفاخر. تقدّم أحدهم باعتباره المستشار الإعلامي وطلب الاطلاع على الأسئلة.

ـ ليس عندي سوى سؤال واحد.

ـ تفضلّي.

ـ أريد كاميرتي.

اتسعت البلاهة ثم تقلّصت. رأيت أخطبوطاً بعدة أذرع. مدّ واحدة إلى درج في الجانب الأيسر وأخرج الكاميرا. وضعها أمامه على المكتب. ثم مد ذراعاً ثانية إلى الدرج الأيمن واستلّ مسدساً ووضعه بجوارها.

ـ تعالي خذيها.

العمر لحظة. ويبقى العقل نعمة. وقد آن للكابوس أن ينتهي رغم أنه ليس قصة. وضعت الدولارات التي جاءني بها أوانيس على الطاولة وقمت من حيث أتيت. غادرت المكتب والمقر والشارع والحيّ. تمنيت لو أطير خارج المدينة وأهجر البلد كله. لم أكن غاضبة أو مغتاظة أو حزينة أو مقهورة أو قرفانة. كنت حانقة. معنى كتبته كثيراً ولم أختبر معناه. لن أستطيع الكتابة بعد ما حصل. سمعت منير التكريتي، أستاذنا في قسم الصحافة، يقول إن الصحافي الحر يكسر قلمه ويقبع في بيته إذا صودر ضميره.

لم أدرِ أي وجهة أتوجه. لا بيتي يحتوي غلياني ولا جريدتي. وجدت نفسي أدخل على أوانيس وأرتمي على الكرسي المعمّر في دكانه. حاول الرجل الطيّب أن يخفي كأسه تحت الطاولة.

ـ عمي أوانيس، ما مشروبك؟

ـ عر.

ـ هات شفطة.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء. ذهبت للرجل وعدت بخفيّ حنين.

وأنا أعرف نفسي في مثل هذه المواقف. تتنطع وتكابر وتخترع ما لم يحدث. تلبس دروع البطولة. وقد صعد المشروب إلى رأسي فتخيلت الأولمبس تعاند الغاشم الذي افتكها مني. تبصق في وجهه كلما أمسك بها. تتمرد عدستها عليه ولا تنفتح. تنتحر وترمي نفسها ساقطة على البلاط بقوة. تتهشم ولا تستسلم.

أعرف نفسي في مواقف هزيمتي. أرفع علامة المنتصر وأنا أمسح دمعتي بردني.

عهود وحدود

وقفتُ مرتبكة أمامه وكان يجلس مستريحاً. بيننا حاجز زجاجيّ سميك ذو فوهة دائرية. ألصق أذني بالزجاج لكي أسمع ما يسألني عنه، أو أقرّب فمي من الفوهة ليسمع ما أقول. يتكلم أفراد الأمن في المطارات من بين أسنانهم. لا يستهلكون عضلات الفكّ. يتلذذون بتمويه العبارات. تتلعثم أذن السامع في التقاطها. يرتبك ويهابهم.

في تلك السنوات، لم تكن الحواسيب الإلكترونية قد دخلت الخدمة. يراجع الضابط أسماء المطلوبين والممنوعين من السفر في سجلات سميكة أمامه. دفعتُ له بجواز سفري وابتسمت بمشقّة. مغصة الخوف تلوي مصاريني. يملك ذلك الرجل غامض الملامح أن ينعش آمالي أو أن يقضي على مستقبلي. كنت أتعرق ويهرب الدم من وجهي دون أن أرتكب جرماً ولا مخالفة. كيف يكون شعور من ارتكبها؟ أقول لنفسي إن أعصابهم لابد وأن تكون من حديد، أولئك المعارضين والمنتمين إلى الأحزاب المحظورة، الهاربين الذين يسافرون بوثائق مزوّرة.

بحركة كسول سحب جوازي وفتحه على صفحة الصورة وراح ينقل عينيه ما بينها وبين وجهي. أطال المقارنة، متعمداً، وأنا أسبح بعرقي. لعله أراد أن يتسلى بخوفي. يرفع جرعة خضوعي.

ـ ألهام؟

ـ إلهام ... بالهمزة تحت الألف.

ـ شنو الفرق؟

ـ ماكو فرق.

ـ كه كه جه كي اسم الجدّ؟

ـ لقب العائلة.

ـ كردية؟

ـ لا.

ـ عجمية؟

ـ أبداً.

ـ متزوجة؟

فتح السجل الكبير أمامه وراح يقلّب الصفحات على مهل. وصل الى الصفحة المقصودة. أمدّ نظري عبر الزجاج وأرى سبابته تمر نزولاً على عشرات الأسماء المطابقة لاسمي الأول. أتونّس بهم مثل من عثر على شركاء وشريكات في المحنة. يمكنني أن أتلطى وراءهم. الاسم يصلح للمؤنث والمذكر. لكن ما باله يقلب الصفحة ولا يتوقف عن تحريك أصبعه فوق السطور؟

يطلّ شيطاني برأسه ويسأل الضابط بصوت أُحاول ألا يشي برجفته:

ـ كل هؤلاء إلهامات ممنوعات من السفر؟

يمطّ الرجل الغامض شفته السفلى نحو اليمين في شبه ابتسامة. ينظر من وراء كتفه إلى هرم من السجلات الكبيرة والسميكة المكوّمة على الأرض، في زاوية مكتبه الذي يشبه الزنزانة.

ـ هذه الكومة لمن يحملون اسم محمد.

يتسلى بدهشتي ويتطلّع من وراء كتفه الثانية. يومئ إلى هرم أعلى من السجلات، تتكوّم في الزاوية المقابلة:

ـ وهذه لمن يحملون اسم عليّ.

تصل قطرة العرق البارد ربلة ساقي اليسرى. أرفع قدمي اليمنى لأمسحها بوجه حذائي. أستعيد كل محمد أعرفه من الجيران وكل عليّ من زملاء الدراسة والعمل. أقلق عليهم دفعة واحدة. لا يمكن أن يلحقوا بفوج المغادرين مع مراجعة كل هذه السجلات. قبل التأكد من أنهم ليسوا المقصودين بالمنع من السفر. كم طائرة مضت ومقاعدهم خالية فيها؟ أنا خائفة والضابط يطيل الفرجة على جواز سفري. يدرسه ويفلّيه صفحة صفحة. يدقق في التأشيرات والأختام، كأنه يطالع رواية مثيرة.

انتهى ترف السفر بالطائرات، دخل جيشنا إلى الكويت وتبلبلت الحدود. فرضت الأمم المتحدة حظراً جوياً علينا. صار الأردن هو معبرنا إلى العالم. وهو البوابة إلى بغداد. تنطلق، بعد انتصاف الليل، الحافلات والسيارات الأجرة وعربات الدفع الرباعي من كراج العبدلي لتصل الحدود العراقية مع

أولى خيوط الفجر. مركبات أميركية قوية من طراز جي. إم. سي. يسمّيها العامة «جمسي». نودع بلدة الصفوي الأردنية وشيخ جامعها يرفع الأذان. أنزل مع رفاق السفر نشتري ما يحتاجه أهلنا المحاصرون. يعرف أصحاب الدكاكين المواد المطلوبة. يوفرونها بكميات مضاعفة على الحدود. ربطات خبز. مواد مُعقمة وأدوية مُهدئة. معلبات لحم بقر وصناديق صابون ودزينات من الشموع وعلب الكبريت. دفاتر مدرسية وأقلام رصاص. لم ترحم تلك السنوات أحداً، لا شيخاً ولا طفلاً.

لأرض الأجداد رهبة عند العودة. تلتمع نقطة طريبيل في صحراء قاحلة. دولة مستقلة لها حاكمها العسكري. شرطتها. مسجدها. مقهاها. وحدتها الصحية. محطة وقودها. سوقها الحرة وفرع لمصرف الرافدين. لها، أيضاً، مكتب مخابراتها وسجنها الخاص. كان المقام في طريبيل يطول لساعات غير معلومة. أنت وحظك. من النادر أن يمر المسافر العادي مرور الكرام. حملت حاجياتي وذهبت بها الى خيمة التفتيش. خلعت معطفي وقلبت سترتي وجيوبها على البطانة. فتحت الأكياس وحقائب الملابس. فرشت كل شيء أمام المفتشين والمفتشات. أغضّ بصري وهم يستعرضون الستيانات والسراويل. يتذوقون الحلويات. يفتحون الهدايا وعبوات الشامبو. يشمون قنينة العطر. ويصادرون ما يعجبهم.

ـ تفضلوا إخوان ... مبروك وعوافي.

تنتهي الحفلة الأُولى وأقف مع السائق في انتظار تفتيش السيارة. برد الصحراء ينفد للعظم. يطلبون منه أن يفتح الصندوق. يكشف غطاء المحرك. يرفع المقاعد. يتقدم المفتش وينبش وراء العجلات. يدس كفّه في عادم الدخان. تنجح سيارة الأجرة في امتحان العبور. لا يبقى عليّ سوى أن أدفع الرسوم وأجري فحص الدم. المصاب بـ «الإيدز» لا يدخل العراق. يعتذر الممرض بأن الحقنة غير معقّمة.

ـ يعني ألتقط جرثومة وأموت؟

ـ يا معودة لكل مشكلة حلّ.

كل الاعتذارات مبرمجة. كل الأغاني والرشاوى ممكنة. أتفاوض معه وتنتهي القضية بعشرين دولاراً. أخرج بدون سحب دم مع ورقة مختومة بأنه أخذ عينة من دمي.

ـ راجعي دائرة الصحة في بغداد لتسلّم النتيجة.

ـ أهلي في الموصل ولن أبقى في بغداد سوى يوم.

ـ بسيطة. ورقة خضراء ثانية مثل الأولى.

لم يبقَ أمامي سوى ختم جواز السفر. ساعة من الزمان لا أكثر بسبب الزحام على الشباك. شباك حبيبي جلّاب الهوا. أفرح لأن الدورة في خواتيمها. ذهب الكثير وبقي القليل. لكن الجالس وراء الفوهة الزجاجية يطلب مني التوجه الى مكتب رقم أربعة.

ـ نعم؟

ـ مقر المخابرات.

في ساعة الفجر تلك، يكون الضابط متأرجحاً ما بين الكرى واليقظة. مكتبه هو غرفة نومه. يبيت ليلته على سرير حديديّ ومفرش قذر. يسمع طرقات على بابه فيلعن الساعة. يقوم وهو يفرك عينيه ويبحلق في القادم. يرفع خصر بنطلونه حين يرى امرأة. يجلس إلى طاولة عتيقة، يبحث عن أشياء لم توجد.

ـ هل معك قلم؟

ـ تفضّل أخي.

ـ وورقة؟

ليس في حقيبتي ورقة فارغة. أنتزع صفحة من مفكرتي. يأخذها ولا يجادل. للدولة نفقات أهم من شراء القرطاسية لموظفيها. يبدأ الاستجواب. يسجّل إجاباتي بقلمي وعلى ورقتي.

ـ كم مضى عليك وأنت خارج القطر؟

ـ ستة أعوام.

ـ لماذا؟

ـ للدراسة.

ـ يعني تكفي لأن تصبحي دكتورة مرتين.

ـ مرّة واحدة بس.

ـ دكتورة بأي مرض؟

ـ حاشاك بالأدب.

ـ يعني شغلة ميتة.

الملعون مستعد للتنكيت قبل أن يبل ريقه باستكان شاي. أخرج من الغرفة ذات الهواء الفاسد لأستنشق نسائم الصحراء. يعود موظف الأمن إلى النوم وهو مطمئن. شخصي الضعيف لا يهدد الحزب والثورة. أقصد مكتب الجوازات وأنتظر أن ينادوا عليّ. الغرفة مزدحمة رغم اتساعها. امرأة ترضع طفلها وشيخ يسعل ويبصق على الأرض ورجال يشعلون السيجارة من السيجارة. أخرج لأتنفس من جديد وأحاذر الابتعاد. أبحث عن دورة المياه. تصدّني الرائحة والمياه الطافحة. لا مكان لتعليق حقيبة اليد. وضعتها على رأسي ورفعت ثوبي. ليتني كنت رجلاً. عبرت الشط على مودك وخلّيتك على راسي. أتسلّح بالفكاهة وأرخي حبل الصبر. والشمس ارتفعت فوق الرؤوس تصلي ولا ترحم. أحتمي بمسقوفات الجنكو، أتأمل مدخل النقطة الحدودية. جدارية كبيرة للقائد يرفع يده بالتحية. يؤشّر للمسافر: «وين تروح؟»

ثم رزقتني السماء برائد. سائق أُردني يعرف كيف يمر بطريبيل مرور رمح رشيق. تسعيرته أعلى من غيره لكنه يستاهل. سيارته نظيفة وكلامه قليل. يبدأ الرحلة بتعبئة ترموس القهوة الملغومة بالهيل. تطرد نعاس المسافات حين تنهب بنا «الجمسي» الطريق. إسفلت يبدو بلا نهاية. يقطعه يوسف عمر وأم كلثوم، حسب المزاج. يرصّ رائد أشرطة لكل الأذواق. تتحول رحلة الساعات الاثنتي عشرة إلى فارزة في عمر الزمن. لكن موهبته الكبرى كانت تتجلى في اختصار دورة الرشاوى. هناك حصة يدفعها المسافر لكل واحد من موظفي الحدود. يتوجه رائد بثقة إلى كبيرهم ويدس في كفّه خمسة دنانير أردنية. دينارهم يساوي رزمة من دنانيرنا. عندها تنزلق سيارتنا عابرة الحدود بكرامة. لا جرجرة حقائب ولا عبث أيدٍ في الجيوب وتحت الثياب. والأهم، بدون المرور بالمكتب رقم ٤ أو الخضوع لسحب الدم بسرنجة ملوثة.

وطريبيل درب آلام الأُمهات المتلفعات بالعباءات السود. يخرجن إلى الأُردن لملاقاة ولد منفيّ، لاجئ، أو محض مهاجر يسعى وراء لقمة العيش. يطول غيابه ويبقى الوطن طارداً وعصيّاً. وصلت جارتي أم سالم إلى عمّان لكي ترى ولدها. فارقته لستة عشر عاماً وتريد أن تشمّه قبل أن تموت. معها عنوان عمارة تؤجر شققاً مفروشة في جبل اللويبدة. نزلت من التاكسي

وهجمت على البواب المصري تحضنه وتشبعه تقبيلاً. تصورّت أنه بكرها الغائب. ما كان لها أن تميّز ابنها المدلل وقد ابيضّ شارباه. اكتهل قبل الأوان.

والكثبان تستبطن الأسرار وتختزن الحكايات. صحراء شاسعة ذات مهابة. تنفتح حدودها على شتّى الأحلام والاحتمالات. تحفظ مراودات الهروب إلى فضاءات مختلفة ونائية. لا يقولون سافر فلان، ولا هاجر. يقولون هجّ. لعلّ أرض البداوة تلهم الفروسية. لكن في تلك البلاد ما يكفي لإطفاء شجاعة عشيرة من البدو. يصبح الخوف رفيقاً مخلصاً في رحلات الخروج والدخول.

تتقلّب العهود والمغص مقيم في مصاريني. يذهب بعبع وتأتي بعابع. ومطار أربيل جديد بالغ التنظيم. جئته في رحلة مباشرة. أمشي على أرضية لامعة، أتبع لافتات بثلاث لغات. أرى موظفين أنيقين أمام الحواسيب وأتذكر السجلات السميكة في مطار بغداد. ومأمور المخابرات الذي يفرك عينيه نعاساً في طريبيل. ذلك هو الزمن الساذج. ما قبل الزمن. رزق الله ع العربيات وع أيام العربيات. فحواجز التفتيش هنا يحكمها أجانب. مرتزقة شقر زرق العيون لا يفقهون العربية. ترافقهم كلاب شرسة تفهم لغتهم. أي وطن هذا الذي تدخله بالقاموس؟

كل شيء يتغير إلا طبعي. أخشى الاستجوابات وألتزم الحذر. أحفظ مواد قانون العقوبات البغدادي وتعديلاته الصائبة أو الجائرة. أعرف التعليمات والمراسم الجمهورية. أراقب كلامي وأتجنب الثرثرات. أمشي الحائط الحائط رغم أني أقيم خارج جدار الخوف. مُقيّدة في أرض الحرية منذ دهر من السنين.

أخذتني السنين عشرات المرات إلى المطارات وإلى الحدود، وعادت بي منها. في كل مرّة أعاهد نفسي أنها الأخيرة. مواطنة خائفة كذوب تنقض عهودها.